أحمد بوزيد

محمد بن سليمان الروداني
من أعلام المغرب
في القرن الحادي عشر الهجري

منشورات عكاظ

أحمد بوزيد



محمد بن سليمان الروداني
من أعلام المغرب
في القرن الحادي عشر الهجري

أحمد بوزيد (فتى الأطلس)

ولد سنة 1948 م

بقبيلة أكونسان تافنگولت اقليم تارودانت

درس بالمعهد الاسلامي بتارودانت سابقا

وخريج كلية الآداب بفاس

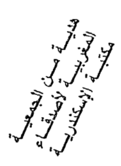
وكلية الدراسات العربية لمراكش

يشتغل حاليا بالتدريس بتارودانت

باحث في التاريخ والفنون الشعبية

له عدة أبحاث ومؤلفات

ودواوين شعرية بالعربية والأمازيغية لم تنشر



تقديم

منذ سنة 1973م، وحين شرعت بتوفيق من الله في جمع مادة هذا الكتاب وغيره من تاريخ مدينة (تارودانت) ، بدأ اتصالي بشخصية ابن سليمان الروداني . ومن خلال استقصاء البحث وجمع أخبارها والبحث عن مصادر ترجمتها ، ظل اهتمامي بها في مقدمة الاهتمامات ، باعتبارها معلمة فكرية وعلمية بارزة ، لا في تاريخ مسقط رأسه (تارودانت) ، لكن على صعيد المغرب الأقصى والمشرق العربي ، بل العالم الاسلامي كله ، وتوطد العزم على المضي في سبيل الحصول على ما يمكن الحصول غليه من معلومات ومعطيات يمكن أن تساعد على صياغة تعريف مبسط لهذا الرجل ، يفي بالقصد في نفض غبار النسيان ، وإماطة أستار الجهل والغموض عن شخصيته المتميزة التي شادت بها كل الأقلام ، والتي تناولته بتقدير وإعجاب ، سواء كان أصحابها من المغرب أو من المشرق ، فوجدتني مطوقا بواجب المساهمة في هذا الصدد ، بإبراز ملامح حياة الرجل وشخصيته ، بما يسعدني اليوم أن أقدمه للقراء .

وكيف لا ، وهو من أبناء هذه المدينة الخالدين ، وأحد أعلامها البارزين وأحد رجالاتها وعلمائها المفكرين ، الذين أسهموا بحظ في إغناء التراث الفكري والعلمي

والحضاري لبلادنا ، حتى تعلم الأجيال الحاضرة والآتية حق العلم أن واجبها يفرض عليها العمل على مواصلة ربط الحاضر بالماضي ، لا بتمجيد الماضي فحسب ، بل باستمداد العون من الله أولا ، والعمل للنهوض برسالة البناء والعمل الخلاق للاستفادة والعبرة ، من أجل هذا الوطن وأبنائه الذين طالما حملوا راية العلم والمعرفة ، ومشعل الحضارة الاسلامية في هذه الديار من العالم الاسلامي ، وفي عصر كانت فيه كثير من بلاد المعمور تتعثر في قيود الظلام والجهالة والتأخر .

ووعيا بهذا المغزى العميق ، كان لزاما علينا نحن – أبناء المغرب – أن نبعث روحا جديدة في مستوى متطلبات الحاضر والمستقبل ، سواء في مجال الفكر والثقافة ، أو في غيره من المجالات .

ووفاء لهذا الحق والواجب ، سعيت فيما سعيت ، إلى المساهمة في التعريف بشخصية محمد بن سليمان الروداني ، وصياغة ترجمته بقدر الامكان ، لتكون لبنة من لبنات التعريف بهذه الشخصية التي ساهمت في صوغ معالم الفكر المغربي في فترة من فترات التاريخ ، حتى يتسنى لنا أن نستنير منه بالجوانب الايجابية المضيئة ، والتي من شأنها أن تغذي قيمنا الفكرية والدينية والأخلاقية بالتحرر والاصالة .

هذا ، وقد كانت النية أول الأمر معقودة على أن تكون هذه الترجمة ضمن فصول كتابنا : (الحياة الفكرية لحاضرة سوس من القرن السابع إلى الرابع عشر الهجري) . سيتم إخراجه إن شاء الله مستقبلا ، غير أن إرادة الله أبت إلا أن يتم إخراجها مفردة هكذا ، كانفراد صاحبها بالتفوق على كثير من أهل عصره ، وفي كافة مجالات المعرفة عصرئذ .

وإحياء لذكرى الرجل ، وتقديرا لتفانيه من أجل العلم ، الذي سجل به للتاريخ ذكرا عاطرا ، ومثل وطنه وأبناءه في هذا المجال بالمشرق ، جاءت هذه الصفحات كذلك مفردة مما سواها ، غير مدعية استيعاب كل معطيات البحث والتحليل الواجب القيام به ، إلا بمقدار ما تدعيه كل محاولة أولى ، لأي مجهود فردي لا يفي بكل القصد ، ولا يبلغ بالطبع نهاية المبتغى ، ما لم تتضافر الجهود ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو ولي التوفيق ، نعم المولى ونعم النصير .

أحمد بوزيد

تارودانت 30 مارس 1985م .

محمد بن سليمان الروداني

– 1037 = 1094 هـ –

محمد بن سليمان الروداني من أعلام الفكر والثقافة الاسلامية والعربية والعلوم العقلية ، البارزين في القرن الحادي عشر الهجري ، وعلى صعيد العالم الاسلامي .

تألق نجمه في سماء بلاد المشرق بعد سطوعه في المغرب الأقصى أواسط هذا القرن ، بين المراكز الثقافية وزوايا العلم والتربية الصوفية ، عبر تارودانت ودرعة وسجلماسة ومراكش وتادلة وفاس ...

وقد تردد الرجل بين هذه المراكز العلمية والثقافية ، وتلقى فيها العلوم والفنون والتوجيه ، من شيوخ العلم والتدريس بها ، متنقلا هنا وهناك ، كالنحلة الظمأى بين الأزهار والورود في حديقة غناء لارتشاف الرحيق .

يجمع كل الذين ترجموا لابن سليمان ، على أنه ولد بمدينة تارودانت سنة (1037 هـ = 1627 م) ، في أسرة مجهولة الحال ، وغير معروفة الأحْوَال ، مما لا نستطيع معه – لانعدام المعلومات والمعطيات – أن نتعرف على ما إذا كانت هذه الأسرة من الأسر المتأصلة بالمدينة ، أم أنها وافدة عليها من إحدى المناطق السوسية القريبة أو البعيدة ، كما هو الشأن بالنسبة لعديد من الأسر والعائلات العلمية وغير العلمية ، والتي وردت على تارودانت واستقرت بها على إثر قيام الدولة السعدية ، في عهد محمد الشيخ المهدي السعدي ، الذي شجع مختلف القبائل السوسية على سكناها وعمارتها .

وتخبرنا كتب التراجم عن ولادة الرجل في صيغة عامة غامضة لا تنتفي معها أن تكون في مكان آخر غير تارودانت ، لاستحالة معرفة ما إذا كانت هذه النسبة حقيقية أم نسبية ، كشأن كثيرين ممن ينتسبون في كتب التراجم والتاريخ إلى أماكن لا ينتسبون إليها إلا بالمقام أو المجاورة وهذا شأن كثير من السوسيين وغير السوسيين ، وهذا شأن كثير من رجالات المغرب في مؤلفات المغاربة والمشارقة على حد سواء ، مما يجعلنا لا نستبعد أن ينسحب هذا الحكم على محمد بن سليمان الروداني واحتمال انتسابه الحقيقي إلى منطقة قريبة من تارودانت ، لا إلى المدينة نفسها ، مع العلم أن أغلب سكان المدينة في هذا القرن كانوا حديثي العهد بالنزول بها منذ أن جددها محمد الشيخ ، الذي جلب إليها السكان ، وشجعهم على الاستقرار ، وأمرهم بالغرس والاحياء بعد أن طرد الاعراب المتجاسرين عليها ، وفرضوا على سكانها المغارم والاتاوات ، مما هو مذكور في كتب التاريخ . وهذه الأسباب والعوامل كلها تجعل القطع بانتساب ابن سليمان إلى المدينة بالضبط ، يتأرجح بين الشك واليقين انطلاقا من مصادر ترجمته التي لا تولي لهذا الجانب أي اهتمام .

وقد ظلت أخبار أسرة ابن سليمان مجهولة ، وأحوالها غير معروفة – وإلى الآن – بينما بعض بَلَدِيِّيه وغيرهم من المعاصرين له ما تزال أخبارهم تتداولها الروايات الشفوية ، وعن حوماتهم التي كانوا يسكنونها ، رغم ما يكتنف هذه الأخبار من تحريف وتشويه ، وخرافية وغموض . أمثال : عبد الرحمن بن الوقاد (ت 1057 هـ) ، وعبد الرحمن التامانارتي (ت 1060 هـ) ، وعيسى السكتاني (ت 1062) وغيرهم كثير .

وبالنسبة لابن سليمان لم ترد إشارة – فيما نعلم – عن أسرته أو خبر عن الحومة التي تسكنها ، أو أي شيء آخر من هذا القبيل ، يذكرنا ببعض الترسبات من الأخبار ، تجعلنا نتصور تصورا معينا ، أو تكون فكرة محددة عن أسرته وظروف حياة طفولته الأولى ، التي غذته بمقومات شخصيته الفكرية والعلمية والثقافية فيما بعد ، ونبوغه في كافة مجالات المعرفة في عصره ، وهي مدعاة للكتاب والمصنفين وأصحاب التراجم ، ليتناولوا طفولته وملامح نبوغه ، ودواعيه النفسية ، وتأثير البيئة في ذلك ، مما نعتبر السكوت عنه أمرا مستغربا .

ولعل ما انسدل من أستار الجهل والغموض على أسرة بن سليمان ، وما يلف المرحلة الأولى في حياته من ظلام دامس ، وهي المرحلة الواقعة ما قبل ارتحاله إلى

طلب العلم ، لعل السبب في ذالك يرجع إلى الأحداث التي كانت تارودانت مسرحا لها ، طيلة النصف الثاني من القرن الحادي عشر .

ولا شك أن هذه المتغيرات والتطورات ، عملت على اندثار أخبار أسرة المترجم ، وضاعت آثارها في غمرة أمواجها المتلاطمة ، إما بانقراضها ، أو بجلائها والارتحال إلى مكان آخر ، أو لسبب من الأسباب التي لابد وأن تكون مختلفة في مثل الظروف والأوضاع التي عاشتها هذه المدينة في هذه الفترة المضطربة من تاريخها .
إذ لم يلحق الضرر هذه الأسرة فحسب ، بل شمل جميع المجالات في حياة المدينة ، عمرانا وبشرا واقتصادا وثقافة ... وأتى الطمس على كافة معالم تاريخها العام .

ولذلك نميل إلى الاعتقاد بأن الانطماس الذي أصاب أخبار أسرة المترجم وغيرها من الأسر ، وانعدام تداولها منذ هذه الفترة ، سواء على شفاه الرواية أو على ألسنة أقلام الكتاب ، من المصنفين وأصحاب التراجم وغيرهم ممن ذكروا ابن سليمان أو أشاروا إليه ، وتناولوا أخباره من زاوية من زوايا الحديث ، يرجع إلى جملة هذه العوامل التي ذكرت ، وغيرها . وحين تحدثنا مصادر ترجمته أنه خرج من تارودانت للمرة الأولى بقصد الأخذ ، والانتقال بين المراكز العلمية بالمغرب ، لانعرف ما إذا كان على اتصال بأهله بتارودانت منذ فارقها أم لا .

فهذا جانب لم تشر إليه مصادر ترجمته بشيء ، يمكن أن يلقي بعض الضوء على أحواله وتنقلاته ، والظروف التي تحيط به وبأسرته بتارودانت من خلال المراسلات التي يفترض أن تكون بينهما ، ويمكنها أن تسلط الأضواء كذلك على مكان وجود أسرته ، وتزودنا ببعض ما يتصل بها من أخبار مما ينقصنا اليوم عنها من معطيات عن أحواله وتقلباته .

ومن نتائج انقطاع الرجل عن وطنه ، واغترابه في بلاد المشرق ، كان هو الاهمال والنسيان الذي يحيط به ، حتى من خلال مادونه عنه أصحاب المصنفات وكتاب التراجم والحوليات من المغاربة وغيرهم .

والقصد من إثارة هذه التساؤلات ، هو التذكير بما نال محمد بن سليمان الروداني من إهمال وغبن وإغماط في حق نبوغه المتميز ، الذي بذ به كل انداده المعاصرين له ، ممن لا يرقون إلى درجة علمه واتساع شهرته ، وبالتالي ما أصاب هذه المدينة من ضياع تاريخ رجالاتها وانطماس أخبارهم وإسهاماتهم المتعددة ،

والمغمورة المجهولة المنسية الضائعة في طي الحدثان ، كما هو الشأن بالنسبة للمترجم .

وحين نقول هذا إنما نقرر حقيقة واقعية ملموسة في مجال البحث والكتابة التاريخية ببلادنا ، وفي هذا السياق تعتبر الحلقة الضائعة من حياة ابن سليمان نموذجا واحدا من بين النماذج الكثيرة والتي تعد بالعشرات ، أتى عليها الانطماس والاندثار في تاريخ هذه المدينة ، ولئن كان يعزى بعض هذه العوامل والأسباب إلى اغتراب الرجل في المشرق ، وانقطاعه هناك عن أهله ووطنه ، فإنه يرجع في نفس الوقت إلى ما جبل عليه السوسيون «من عدم اعتنائهم برجالهم ، والتفريط دائما لا ينتج إلا الجهل المظلم»(1) . وهذه شهادة من أهل مكة صريحة كما يقال .

وما يقال عن نشأته كذلك عبارة عن عموميات ، لا تساعد بحال على معرفة تفاصيل هذه النشأة ، وإبراز معالمها العامة ، والعوامل والظروف التي واكبتها وعملت على التأثير فيها ، خاصة تلك الفترة التي سبقت خروجه من تارودانت .

ويذكر جميع الذين ترجموا لابن سليمان - بدءاً بأبي سالم العياشي (ت 1090 هـ) ، وانتهاء بالامام الحضيكي (ت 1189 هـ) ، أنه نشأ بمسقط رأسه في كنف أبويه ، من غير زيادة في التفصيل والتوضيح ، أو التعليل للمناخ السياسي والاجتماعي والثقافي السائد في تارودانت في القرن الحادي عشر الهجري ، الذي واكب البداية الأولى لنشأة المترجم ، ورافق تدرجه في سلم التلقي والتكوين بالمدينة ، من قبل أن يغادرها لينطلق في الآفاق ويجوب أقطار المغرب والمشرق .

وأمام هذا الفراغ الذي أغفله السابقون ، سأحاول في هذه السطور أن ألخص أحداث الفترة التي تزامنت مع نشأة المترجم وأنسج الخيوط الأولى لنسيج الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية بتارودانت أواسط القرن الهجري (11) ، والأوضاع التي استظل بظلها ابن سليمان وتأثر بها في حياته الأولى .

كان المغرب ينعم بالاستقرار في عهد أحمد المنصور الذهبي ، كما امتد فيه جناح الأمن ورخاء الحياة وازدهارها ، اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، واتسعت الأحوال ، وعم الناس رخاؤها ودرورها ...

غير أن هذا الوضع لم يلبث أن انقلب ، وتغيرت الظروف والأحوال تغيرا جذريا بعد وفاة هذا السلطان ، واصطراع أبنائه على الملك والسلطة وأثاروا في مختلف المدن والمناطق غربان الشقاق والفتن والدسائس ، بجانب الأوبئة والقحوط التي رافقت هذه الفتنة وهذا التناحر ...

وألقى شيوخ بعض الزوايا والعلماء بأنفسهم في غمار هذا الصراع المحتدم ، إما بدافع الغيرة على الدين والوطن ، وإما اغتناما للفرصة والقفز في أتُونِ هذا الخضم المتلاطم ، والخوض في غمار الأحداث طلبا للحكم بحجة أو بأخرى ، وغدت البلاد بكافة مناطقها مرجلا يغلي بنار الاضطرابات والفتن والحروب القائمة بين المتطلعين إلى سدة الحكم ، وظهرت محاور ومراكز سياسية تتنافس في ما بينها على حيازة تركة السعدين في كل مـــــــن الزاوية الدلائية ، وتارودانت ، ومراكش وفاس ، وفي سلا وسجلماسة وتافيلالت ... بينما الأوبئة والقحوط والمجاعات تعمل على تعميق الأزمة وتجذير المأساة التي يعيشها المغرب أكثر من نصف قرن ، لم تطلع على ربوعه خلالها شمس الاستقرار ، ولا هب فيها نسيم الأمن والأمان ، ولا نعم الناس فيها بالدعة والاستكان ، فشهدت البلاد بسبب ذلك أزمة اقتصادية واجتماعية لا مثيل لها[2] وأتى على البلاد خلالها بلاء من ربك عظيم « ... ونزل الأرض بذلك ما نزلها ، وخان الجار ، ولبس الزمان البوس ، وجاء بالوجه العبوس ، وأورد ماء الاختلاف ، وانضب ماء الوجوه والائتلاف ، وطأطأ الحق رأسه وأخفى المحق نفسه ، وتبرقعت الحسناء ، وكشفت الشوهاء ووردت المهالك ، وسدت المسالك ، وعم الجزع والجوع ، وتبرأ الكوع من البوع ، إنا لله وإنا إليه راجعون»[3] .

ومنذ مات المنصور ، كانت تارودانت محورا هاما من محاور الصراع القائم بين أبناء المنصور أنفسهم ، أو الصراع القائم فيما بعد بين يحيا الحاحي وأبي حسون السملالي في سوس .

فبمجرد ما سمع أبو فارس عبد العزيز بن أحمد المنصور بوفاة أبيه بفاس ، أرسل على الفور إلى نائبه بتارودانت – وهو أخوه الناصر الذي سيثور هو أيضا للمطالبة بحقه في الملك – يأمره بالانضمام إليه وتأييده ، استعدادا لتنصيب نفسه ملكا على مراكش ، فانضمت تارودانت إلى أبي فارس[4] ولم يلبث أخوه الناصر أن التجأ إلى تارودانت في ألف جندي ، يطلب من أهل سوس أن يساعدوه وينصروه ، لكنهم طردوه من المدينة لمبايعتهم أبي فاربس فالتجأ الناصر إلى الجبل ، وبقي به إلى أن مات مسموما أو بالطاعون سنة (1014 هـ / 1604 م)[5] ، وفي غمرة هذا الصراع سلم محمد الشيخ بن المنصور مدينة العرائش للاسبان[6] ، فقام على إثر ذلك الشيخ الصوفي أحمد بن عبد الله التاساوتي ، المشهور بابن أبي محلي السجلماسي ، المقتول سنة (1022 هـ / 1613 م) ، فقاد ثورته على مراكش ،

وزحف إلى القصر البديع سنة (1019 هـ / 1610 م) وطرد منه السلطان زيدان بن المنصور الذي قصد تارودانت للاستنجاد بالشيخ أبي زكريا يحيا الحاحي ، الذي كانت له الكلمة المسموعة في مختلف مناطق سوس[7] ، بينما كان يتولى شؤون زاوية أبيه بتافيلالت[8] تدريسا وإرشادا للمريدين[9] ، مكان أبيه الشيخ عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي (ت 1012 هـ) .

وبينما كان يحيا قائما بأمر زاويته ، كان يصغى كذلك بأذنه إلى ما يجري بين أبناء المنصور من تناحر وتقاتل ، وإلى ما تشهده تارودانت من أحداث وقلاقل ...

في هذا الوقت أسرع زيدان إلى يحيا الحاحي يلهث مذعورا ، يطلب منه الاغاثة وحماية ملكه من ثورة ابن أبي محلي الثائر الغاضب ، فجمع يحيا مقاتلة سوس ، وقصد مراكش من تارودانت ، وتم اللقاء بينه وبين ابن أبي محلي في (إيِمي نْ تانُوتْ) ، وانتهى بمقتل هذا الأخير ، ودخل أبو زكريا القصر البديع ، بعد ما طرد منه أنصار بن أبي محلي ، ثم رجع زيدان إلى مراكش على أن ينفذ الشروط التي اتفق عليها مع يحيا الحاحي من قبل من قبل أن يقوم هذا الأخير بإنجاده .

و لم يكن أبو زكريا قبل هذا الوقت متصديا للخوض في غمار السياسة والتطلع إلى الحكم بين شيوخ الزوايا الطامحين ، إلا بعد قضائه على ثورة التاساوتي السالف الذكر ، سنة (1022 هـ)[10] .

غير أن تراجع زيدان عن تنفيذ ما اتفق عليه مع الحاحي ، من شروط الاصلاح والانقاذ التي يرى يحيا أنها كفيلة بإنقاذ البلاد مما تتردى فيه من ضعف وانحطاط ، ومخالطة رفقاء السوء ... كان السبب المباشر ليحيا في الخروج على السلطان زيدان بتارودانت ، ونصب نفسه أميرا بها ، والعمل على تجميع الكلمة بين القبائل السوسية حول تارودانت .

لهذه الأسباب وغيرها[11] لم يتردد أبو زكريا الحاحي في دعوة قبائل سوس إلى كلمة سواء تحت أمرته ، والعمل على تبرير سبب دعوته وعزمه على الأمر ، فقام يكتب بالرسائل الشعرية والنثرية إلى الفقهاء وإلى العلماء والشيوخ والطلبة ورؤساء العشائر ، منها هذه القصيدة التي نجتزىء منها هذه المقاطع لطولها :

فمن مبلغ أهل الحواضر والقرى ... وأهل البوادي من تعلم أو قرا
ومن هو أهل لاستماع الكتاب والـ ... حديث وأحكام المسائل قد درى
ومن فيه من خوف المهيمن شعبة ... كذا حبه فيما أسر وأجهرا

إلى كم أناديكم ولما أجدكمو ... كأني أنادي أو أكلم اقبرا
واندب أطلالا عفت ومعالما ... بها الدين أضحى في اغتراب معفرا
وعدت غريبا مثله فتحيرت ... لذلك نفسي فالتزمت التصبرا
عفا الله عنكم لا أزال مواليا ... لنصحكمو ما دمت فيكم مذكرا
وحسبي الذي أرجوه يهدي جميعنا ، ... وينصر هذا الدين نصرا مؤزرا
وما زلت لم أيأس عسى الله بعد ذا ... لك العسر ، جل الله يحدث أيسرا
فقد جاء أن الدين بعد اغترابه ... لدى كل قرن ، ليس زورا ولا افترا
يجدده المولى على يد من يرى ... لذلك أهلا ، سنة الله في الورى
هلموا إلينا بادروا وتسارعوا ... لنغنم منْ رضوان ذي الفضل مظهرا
ويظهر دين الله جل بأمره ... ولو كره الذي طغى وتجبرا
فإني بإذن الله ربي دعوتكم ... إلى الله والتوفيق منه تيسرا
نبذت إليكم عن سواه محسبلا ... وخالص نصحي صفوه ما تكدرا
ألا فافهموا المقصود سرا وجهرة ... وعزما ولا تبغوا له متغيرا
كذاك جهاد الكافرين وغزوهم ... وإخراجهم من غربنا كي يطهرا
وما أن لنا في ذلك مطلب[12] ... وأن تجحدوا فضلي فربي له يرى
أجاهكموا بغي وقدري فوقه ... أم المال ؟ مالي منه قد كان أكثرا
أم القتل دون الحق نفسي تشتهيـ ... ـه ، كلا وقلبي بالشريعة نورا
تحملت عبء الكل صيفا وشتوة ... تقحمت كل الهول سهلا وموعرا
وذلك في ذات الالاه لعله ... يدارك دينا قد عفا وتغيرا
به استعين في أموري توكلا ... على فضله وهو العليم بما جرى
وقمت به للقصد أدعو بحوله الـ ... ـعباد إلى النهج القويم مبصرا
على شرط عهد منكمو واجتماعكم ... على الأمر طوعا ليس منكم من أجبرا
ولا تركنوا للنكث بعد وفائكم ... ولا تضمروا عكسا لما كان أظهرا
وليس لنا إلا جهاد ونية ... وعزم إلى الدين القويم تشمرا[13]

أعلن يحيا الحاحي نفسه طرفا مستقلا في هذا الصراع وثار ضد السلطان زيدان ، وقام في وجه السملاليين ، وزحف إلى تارودانت من زاويته بتافيلالت ، ودخلها بعد معارك شديدة مع التازروالتيين ، وصفها الافراني بأنها « ... وقائع تشيب لها النواصي ، ومعارك يهرم لها الرضيع»[13] انتهت بطرد السملاليين من تارودانت ، وانسحاب الجيش بقيادة عبد الكريم بن عبد الباقي بن أحمد بن موسى[14] ونزل

في مكان ببلاد وجان يسمى ب (تارودانت) ، وآثارها لا تزال حتى اليوم هناك .

ولم يسع التازروالتيين إلا أن يناصبوا يحيا المتغلب ، على تارودانت بالعداء الشديد ، بالمناوشات العسكرية ، والقصائد الشعرية كما لم يتردد يحيا في الرد عليهم بنفس الأسلحة التي كانوا يواجهونه بها وظل قذى في أعين زيدان وأبي حسون السملالي ، إلى أن اغتيل سنة (1035 هـ / 25 – 1626 م) من طرف زيدان الذي اكتوى بنار تمرده طويلا . وجازاه جزاء سنمار ثمنا على إنجاده[15] وحين جاهر يحيا بالدعوة إلى نفسه بتارودانت ، لم يجد من بعض العلماء ما كان يأمله من دعم ومساندة ، لتمسكهم ببيعة زيدان ، أمثال أبي مهدي عيسى السكتاني الذي رفض أن يخلع عنه بيعة السلطان زيدان إلا بموجب من الشرع ، وكان هذا الرفض من طرف السكتاني قاضي الجماعة بتارودانت في تلك الفترة سبب الخلاف بينه وبين يحيا ، ثم انتقل إلى مراكش بعد أن رأي من يحيا عزما على الفتك به ، ولما وصل إلى مراكش بعث إلى يحيا رسالة مطولة يقرر فيها الأسباب ويشرح له الدوافع التي جعلته يغادر تارودانت ويشرح له كذالك موقفه من البيعة الشرعية ، وغيرها[16] .

ولما غادر السكتاني تارودانت وبقيت هذه بلا قاض ، ولى أبو زيد عبد الرحمن التامانارتي مكانه[17] ، ووقف يحيا بتارودانت وحيد الرأي ينافح عن إمارته ، ويدافع ضد تازروالت ، فتعاظم أمره بها ، ومن ذلك أن أهل سلا استغاثوا به سنة (1025 هـ) لما توسموا فيه نية الجهاد والاخلاص في القيام على مصلحة البلاد ضد النصارى ، وما في نفسه من غيظ من تكالبهم على المرافيء الغربية ، وتقهقر أبناء المنصور عن مدافعتهم إن لم يكونوا قد داخلوهم ، فجهز يحيا جيشا من تارودانت مكونا من مقاتلة قبائل سوس لانجاد سلا ، لكن هذه الحملة لم تبلغ غايتها بسبب مناورات زيدان ، الذي يبدو أن له مصلحة في ذالك لتواطئه مع الاسبان واحلافهم[18] .

وامام منافحة الأمير يحيا عن تارودانت ضد زيدان والسملاليين ، كانت عنايته بالجانب العسكري أكثر من غيرها ، لذا يواخذ من طرف المؤرخين بإهمال زراعة السكر وأهميتها الاقتصادية[19] فاضطر حين احتاج إلى تمويل جيشه إلى الاستعانة بالأحباس ، وتخصيص أمواله لذلك ، فأنكر عليه قاضي المدينة ذلك – وهو أبو زيد التامانارتي – وكان من نتائج هذا الخلاف نشوء جدل فقهي وسياسي بين الأمير والقاضي وعبد الرحمن ابن الوقاد التلمساني ، والفقيه أحمد بن الحسن بن عبد الله

– وهو ابن أخ يحيا – كان من نتائج هذا الجدل عزل القاضي التامانارتي ... ولم يلبث يحيا أن مات بعد هذا الخلاف ، وتولى مكانه ابن أخيه أحمد بن محمد بن عبد الله[20] ، الذي لم يستطع أن يضبط الأمور ، أو يكون في مستوى عمه يحيا ، وشجع ذلك التازروالتيين على المضي في طريق الايقاع به وتشتيت أمره ، وإزالة إمارته ، تحفزهم في ذلك أهمية تارودانت الاقتصادية والسياسية ، باعتبارها قاعدة سوس وحاضرته التاريخية الكبرى ، ودورها الاقتصادي الفلاحي والتجاري ، سواء داخل البلاد أو مع الدول الأجنبية .

لذلك لم تخف (ايليغ) فرحتها وسرورها بافتتاح تارودانت سنة (1039 هـ) على لسان شاعرها محمد امحاولوالايسي[21] الذي عبّر عن وجهة نظر السملاليين الذين كانوا يعتبرون تارودانت عقبة كأداء أمام تقدم نفوذهم واتساع إمارتهم ، وامتدادها في ما وراء الأطلس الكبير نحو الحوز[22]

لم تستمر إمارة يحيا بعد وفاته إلا أربع سنوات ، كانت خلالها تحت أمرة بن أخيه المذكور ، وكان التازروالتيون جادين في الرجوع إلى تارودانت ، فلم يدخروا جهدا في مواجهة الحاحيين بها ، بكل أنواع المؤامرات والمناوشات والدسائس والاغراء ... كان لها الأثر الواضح في أحداث الخلاف والشقاق بين خلفاء يحيا وجيشهم ، كما كان أبو زيد التامانارتي الذي كان متوليا لقضاء المدينة في عهد يحيا ، يحتطب في حبل التازروالتيين بما كان يبعثه إليهم من تقارير مفصلة عن الأوضاع العامة بتارودانت ، ويتضح هذا الدور الذي قام به بعد استيلاء تازروالت على المدينة ، والقضاء على إمارة يحيا نهائيا سنة (1039 هـ)[23] .

وما رسائل وقصائد التامانارتي في هذا الموضوع إلا تأييد ومباركة لسياسة تازروالت ، وانضمام تارودانت لها حين يراسل الفقهاء والعلماء الجزوليين من أصحاب ورفاق وطلبة وتلاميذ ... يستقدمهم للقيام بالدعاية اللازمة لتعضيد وجود السملاليين بها ، ويذكرهم بعهدها ، ويثير أشواقهم إليها لينتظم بذلك شمل الدعوة ، ويكتمل به غرضها[24] .

وقد كتب إلى أبي حسون يقول : « ... هذا ، وقد اتصل بمعظم جنابكم في محل سكناه بقبيلة سندالة[25] فتحكم لقاعدة سوس سلما لاحربا ، فتقاذفت إليكم قبائلها عجما وعربا ، فشكرت إلى الله زوال المانع من شق العصا ، لأكاتبكم بما يجب على الاستقصا ... وقد تلقى اهل الحاضرة[26] وسائر من يعتبر من أهل البوادي وهذه الجبال ، هذا الفتح الميمون بالبشائر ، وأذاعوا به في الأهلين

والعشائر ، وعدوه غبطة لا توازى ، ونعمة من الله لا تجازى ، واطمأنت نفوسهم ، وزال عنهم به بؤسهم ... وأما فئة البغي والخسران ، وطوائف الظلم والعدوان ،[27] فقد سقط في أيديهم ، وشالت نعامتهم ، واختبأ في أسمال الخمول خاصتهم وعامتهم ، وطارت قلوبهم روعا ، وضاقوا بما نزل بهم ذرعا فما وجدوا أرضا تقلهم ، ولا سماء تظلهم ، ولا أمكن لذؤبان خطافهم إلا الشرود ، ولا لغربان إذايتهم إلا الطيران بمقت الكبود»[28] .

ويلتمس التامانارتي من أبي حسون العناية بحاضرة تارودانت بعد افتتاحها ، ويرفع عنها آثار ما شهدته من اضطراب في سالف عهدها ، من تعطل مرافقها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ... والعمل على استرجاع بهجتها ونشاطها ، « ... حتى تَبْتَهِج طوائف الدين في مناراتها ، ومساجدها ، والعلوم الشرعية في منصاتها ومعاهدها ، والحرف الحاجية في مصادرها ومواردها ، والمعايش في رغدها ورياشها ، والأسباب في ازديادها وانتعاشها ، حتى يحفظ للمصالح نظامها ، ويتم للبرية وئامها ... وإذا فتح الله لسيدنا ايده الله هذه المدينة ، وفكها من أسرها ، واستنقذها من وبال أمرها ، فليعتن بها ، وليختر من يقم كناسها ، ويطهرها من فاحش ادناسها ، فقد طالما تمخط شيطان الغواية في أطوارها وأجناسها ، وجلب بخيله ورجله على أطباق أناسها ، حتى عطلت بها صوامع يؤذن فيها بكرة وأصيلا ، وهدمت منها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، واستحبوا العمى على الهدى ، وغلبت على طباعهم ألفة الردى ، وهي على ذلك منذ مات المنصور رحمه الله ، في مدة تنيف على خمس وعشرين سنة ، لم يقم فيها للعدل فرض ولا سنة ، فتحتاج أيدكم الله لآسٍ من بطانتكم يحسن علاجها ، ولبيب يشرع للرشاد منهاجها ، ويصرف عن العذب الفرات أجاجها ، حتى تعود إلى قويم مزاجها ، وتتسع بحسن نظره أعمالها ونجاحها ...»[29].

وقد تعرضت المدينة في ظل السملاليين لأعمال العنف والحروب والحصار من طرف القبائل المحيطة بها ، اقتحمها مقاتلتها واستباحوها مدة خمسة وعشرين يوما ، حاولوا الاستيلاء على قصبتها ، وعملوا على هدم سورها ، فحفروا أساسه ، ووجدوه مرصوصا بالحجارة لم يقدروا عليه بشيء ، إذ وجدوا «في قاعدة أساسه الحصا ، لاتنال منه الفؤوس شيئا ، لوثاقته»[30] ، .فأرسل أبو حسون فرقة من جيشه فكت الحصار عنها وشتتت جموع القبائل[31] .

كما كانت في عهدهم مجال عبث وفساد ، بشهادة حليفهم أبي زيد التامانارتي ،

الذي سجل لنا عن أوضاعها في عهدهم نماذج حية عن الأعمال التي كان التازروالتيون يرتكبونها في حق السكان ، الذين ضجوا بالشكايات إلى أبي حسون ، ضد أعوانه القائمين بأمره في تارودانت ، لما كان يصدر منهم من أعمال النهب والسلب في حق المساكين والضعفاء ، ونشر البلبلة والخوف في أواسط الناس ، وانعدام الأمن والطمأنينة على الأعراض والممتلكات والنفوس ، وتوقفت مرافق المدينة ، وتعطلت مراسيم العدل فيها ، بكثرة ما انتهب قطاع الطرق السالكين للطرقات والمسالك ، فانقطع الوارد والصادر من المدينة حتى انقطع الماء عن بيوت الله(32)

فقد كانت المدينة تنام آمنة مطمئنة ، لتستيقظ على ضياع الناس في ممتلكاتهم ومتاجرهم ، فكم انتهبت (القيصرية) ليلا ، من طرف لصوص مجهولين ، فشاع الرعب في الناس ، والتجأوا إلى القاضي التامانارتي فكتب مرارا إلى أبي حسون يذكره بما يجب على الأمير أن يقوم به تجاه السكان من واجب الأمن ، كأمير البلاد وصاحب كلمتها(33) .

وكتب كذلك إلى شيخه أبي مهدي عيسى السكتاني ، يستفتيه حكم الشرع في ضياع المصلحة العامة والخاصة بتفشي الخوف وعدم اطمئنان الناس في حياتهم رغم وجود الأمير(34) ، ولم يسلم القاضي بسبب موقفه من هذه الأوضاع من مضايقات خدام أبي حسون ، فتعرض لمناورات عزله عن القضاء بمشاركة غريمه في المنصب ، عبد الرحمن بن الوقاد التلمساني(35) ، بدعوى تصريف أموال الأحباس وتبذيرها في ما لا طائل فيه ، فرفعت القضية إلى أبي حسون ، فحسم فيها لصالح التامانارتي(36) .

وبجانب هذه الدسائس والحروب والصراعات ، بجميع أنواعها وأسبابها ودوافعها ... هناك ترادف الجوائح والكوارث الطبيعية تتمثل في توالي سنوات القحوط والجفاف والطواعين ، وما ينتج عن ذلك من خسارة في الأرواح والغلاء والضياع ...(37) مما يضطر السكان مرارا إلى الخروج من المدينة والفرار ، إما خوفا من الحروب والمحاصرات وأعمال اللصوصية والنهب ، وإما من المجاعات والأوبئة ... فتعطلت معها مرافق الحياة بالمدينة عدة مرات ، منذ مات السلطان أحمد المنصور الذهبي سنة (1012 هـ) .

وفي هذا السياق كتب التامانارتي بعد اقتلاع الوباء عن تارودانت سنة (1045 هـ) إلى أصدقائه وأصحابه الفقهاء وتلاميذه الجزوليين «بالميعاد إليها ، والابقاء عليها ،

ورعاية عهدها ، وحنان الأم إلى ولدها»[38]

ومن المحقق أن ولادة محمد بن سليمان الروداني كانت في فترة تشهد فيها تارودانت ظروفا دقيقة ، نتيجة المخاض السياسي الذي تعانيه بين إمارة يحيا الحاحي (1023 – 1039 هـ) ، التي لم تذخر جهدا للدفاع عن نفسها للحفاظ على ما بقي بها من رمق الحياة بعد وفاة الأمير يحيا ، وبين إمارة تازروالت التي لم تتوقف أبدا عن التآمر ضد تارودانت ، بالمناوشات العسكرية والدعايات المعادية والدسائس السياسية ، التي استطاعت أن تزعزع كيان إمارة الحاحيين تحت إمرة الفقيه أحمد بن محمد بن عبد الله ، بإحداث الخلافات الداخلية بين أركان أسرة آل يحيا ، وإذكاء الأطماع الفردية بينهم ، وبالتالي انقسام الجيش وتمرده ، مما أدى في الأخير إلى سقوط إمارة تارودانت الحاحية ودخول السملاليين إليها بصفة نهائية سنة (1039 هـ) .

وقد عاصر ابن سليمان من هذا الصراع ثلاث سنوات من حياة طفولته المبكرة ، قبل دخول السملاليين إلى المدينة بثلاث سنوات ، وهي فترة مليئة بالأحداث العنيفة والمتلاحقة ، كان لها – ولا شك – تأثير على حياة أسرته ، نفسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وبالتالي على المناخ الثقافي السائد فترتئذ بالمدينة .

وحين نلقي بنظرة عجلى إلى هذا الجانب من الحياة الثقافية ، واستجلاء معالمها العامة بالمدينة ، في الفترة المتراوحة ما بين قيام يحيا (1023) وسقوط كلمة تازروالت في المدينة (1069 هـ) ، وهي التي ولد ابن سليمان في أواسطها ، وتلقى فيها مباديء تكوينه الأولى ، نستطيع أن نقول بأن هذه الفترة – رغم ما اكتنفها من غموض ومتغيرات متعددة – كانت تشهد كذلك نشاطا علميا ودراسيا ، يتمثل في وجود علماء ومدرسين بها يقومون بوظائف التدريس وغيرها من الوظائف الدينية ، التي كان العلماء والفقهاء يقومون بها منذ عهدها الزاهر في عهد المنصور وما قبله ، حين كانت تارودانت من المراكز الثقافية المشعة بنشاطها المتعدد الأوجه مع علماء وقضاة ومدرسين كبار ، أمثال سعيد بن ابراهيم الهلالي (ت 970 هـ – 1653 م) ، صاحب السؤال المشهور إلى الفقيه الحميدي[39] ، وكذا منصور بن محمد المومني (ت 1000 هـ = 1591 م) ، وسعيد بن علي الهوزالي ، القاضي والمدرس الشهير (ت 1001 هـ = 1592 م) وأحمد ابن مسعود الهوازلي (ت 1030 هـ = 1621 م) ، وأبو مهدي عيسى السكتاني (ت 1062 هـ = 1652 م)[40] .

شهدت المدينة من هذا النشاط ما حافظ على التقاليد العلمية في هذه الفترة

علي ، تامكروت ، لكتاوة ، أغلان ...)[47] وقصدها الطلبة من كل الآفاق المغربية ، وازدهرت بينها تنقلاتهم ازدهارا لايوازيه إلا نشاطها العلمي والدراسي ، فغدت مآوى الطلبة تشبه خلايا النحل في مروج مزهرة ، كان بينها تنافس مستمر ، كان له الفضل الكبير على حركة التأليف ، فضلا عن استفادة من يقصدهم من الطلبة والراغبين[48] .

مع تعدد هذه المراكز وتنوع نشاط مدرسيها المنقطعين للتعليم والتأليف ، تعددت اتجاهاتهم ، وتنوعت اهتماماتهم العلمية ، حسب تكوينهم ، فيلاحظ اختلافهم في التوجهات العامة لمعارفهم واضحا عناية كل بجانب من جوانب علوم العصر وثقافته ، فمنهم من زاوج بين علوم العقل والنقل والذوق[49] ،ومنهم من اقتصر على علوم القرآن وما يرفدها تأليفا وتدريسا[50] ، ومن كان أكثر عناية بالعلوم العقلية من حساب وهيئة ورياضيات وتوقيت ...[51].

وقد كانت الزاوية الناصرية في هذا العهد – فترة الشيخ محمط بن ناصر – من أكبر وأنشط مدارس وزوايا درعة ، للدور الذي قام به هذا الشيخ في مجال التدريس ونشر العلم ، والتربية الصوفية ومقاومة البدع[52] . وخدمة الثقافة الاسلامية والعربية منذ مطلع سنة (1040 هـ / 1630 م) .

والامام ابن ناصر له شهرة في هذا الباب واسعة ، قصده الطلبة والفقهاء والعلماء من كل أنحاء المغرب وخارج المغرب ، ومن أئمة التصوف والعلم المجتهدين في نفع العباد ، وتخرج على يده عدد كبير من رجال العلم في عهده[53] ، فهو كما يقال : ثالث الذين لولاهم لانقطع العلم بالمغرب في هذا القرن: عبد القادر القصري المشهور بالفاسي في فاس (1091 هـ / 1680 م) ، ومحمد بن أبي بكر الدلائي (ت 1046 هـ / 1636 م) ، ومحمد بن ناصر الدرعي (1058 هـ)[54] .

ولا عجب أن تكون هذه الزاوية في عهد هذا الشيخ مركزا علميا مشهودا ، يقصده طلاب العلم من سجلماسة والصحراء وسوس والأطلس المتوسط ومراكش ومكناس وفاس ...[55] ، فيجتذب دَوِيُّ شهرتها محمد ابن سليمان الروداني ، كما اجتذب من قبله ومن بعده كثيرين من أبناء سوس ، الذين أصبحوا فيما بعد من جلة تلامذتها ، وكبار دعاتها في العلم والتصوف ... حتى نجد المترجم يلقي بعصا التسيار عند هذا الشيخ أول رحلته ، فيلازمه أربعة أعوام ، يدرس عليه جملة من العلوم والفنون التي اشتهر هذا الشيخ بتدريسها ، كالنحو والفقه والحديث والتفسير والعقائد واللغة والفرائض والعروض ، والأدب والقراءات والتصوف ، وأيام العرب

ولعل ذلك له أسباب ودوافع ، لانستطيع أن نتبينها بوضوح ، وإذا لم نملك ما نستدل به على اثبات هذا الرأي أو ذاك فيمكن القول بأن خروج الرجل من تارودانت ، ربما كان بسبب الوضعية التي يعيشها داخل أسرته ، من بين جملة الأسباب .

واعتمادا على أحوال الرجل ، يبدو أن هذه الوضعية الاجتماعية ، التي قد تتشخص في كونه يتيم الأب في أسرته ، ربما كانت من جملة الدوافع التي حملته على الهروب من تارودانت صغير السن مكرها ، مما ليس مستبعدا في واقع حياته ، بالنظر إلى :

(1) حينما نقرأ اسم المترجم كاملا ، نقرأه هكذا : محمد بن محمد بن سليمان بن طاهر ، نجد اسمه ينطبق مع اسم أبيه، ومن المعروف في المجتمع المغربي أن الطفل المولود يسمى باسم أبيه، إن كان أبوه قد فارق الحياة قبل ولادة الطفل، اعتقادا في أن تسميته باسم أبيه استمرار لشجرة العائلة ، وتيمنا باسمه في استخلاف ابنه من بعده ، وهذه عادة متواترة مشهورة في الأسرة السوسية ، ولست بصدد دراسة في علم الأنساب إلا بقصد التذكير بما يحتمل أن يترجمه تشابه اسم الولد وأبيه من دلالة على تحقق يُتْم المترجم في حياته ، كعامل من عوامل الرغبة النفسية في مغادرة اسرته ، في سن مبكرة . والضرب في الأفاق منذ صغره . والجدير بالاشارة أن هناك من الناس من يسمي الابن باسم أبيه ، والأب مازال على قيد الحياة ، وهذا لا ينفي بالضرورة احتمال كون المترجم يتيما .

(2) ومن الغرابة حقا أن يغادر ابن سليمان مسقط رأسه – كما سياتي ذلك – ويفارق أسرته للضرب في ضياع الغربة والمجهول ، وسنه لا تتجاوز إحدى عشرة سنة فقط ، وفي حالة نفسية غير عادية ، من غير رضى الأسرة ، مما ينبيء عن وجود سبب ما يحمله على الخروج في هذه السن ، ربما كان هو هذه الوضعية التي قد لايجد فيها من أسباب الانسجام والعطف ما يشجعه على البقاء في ظل اليتم .

يذكرنا فرار ابن سليمان بفرار مماثل لاحد أبناء هذه المدينة في القرن السادس الهجري ، وهو أبو محمد صالح بن واندالوس (سيدي أو سيدي) من أعلام التصوف بالمغرب في القرن المذكور .

فـ (سيدي أو سيدي) خرج مغاضبا من تارودانت بعد الحادثة التي وقعت له مع أبويه ، بسبب تكسيره لخوابي عصير قصب السكر ، الذي عرف سكان تارودانت بصنعه ، يسمى (انزيز)[42] ، فساح في المغرب والمشرق طويلا ، ثم رجع إلى تارودانت زاهدا متصوفا .

وأما محمد بن سليمان ، فقد غادر المدينة لأسباب غير واضحة تماما ، وفي ظروف مشابهة انطمست ، وفي سنة غير محددة . غير أن بالامكان تحديد فترة خروجه بالتقريب ، ما بين سنة (1047 هـ و 1048 هـ) ، وفي عمره حينئذ عشر سنوات أوإحدى عشرة ، ويرجع هذا التحديد ويدعم صحة وقوعه ، كون المترجم اتصل بأبي العباس أحمد بن عبد الحميد المريد المراكشي ، المتوفى سنة (1048 هـ)(43) ، وأخذ عنه ، وقد ورد ذكر هذا الشيخ من بين الذين أخذ عنهم ابن سليمان ، في مصادر ترجمته ، مما يؤكد اتصال المترجم بهذا الشيخ قبل وفاته بسنة أو أكثر ، وقبل انتقاله إلى درعة لملازمة الشيخ محمد بن ناصر الدرعي .

وبذلك يكون خروج ابن سليمان من تارودانت – وبمنطق التاريخ – في أواخر العقد الخامس من القرن (11 هـ) ، وتارودانت عندئذ تحت مظلة تازروالت .

وإلى جانب ما ذكرنا ، يمكن أن يكون من أسباب خروج المترجم من بلده خوف يساوره لمخالفة ارتكبها ، أو لذنب اقترفه ، أو لوضعية غير مريحة ، أو استجابة لرغبة داخلية ، وتطلع طموح إلى السفر والاغتراب من أجل تحصيل العلم ، أسوة بمن سبقه من أبناء مدينته المعاصرين ، إذ يرى من أحواله ما رسم في ذهنه الصورة المثلى ، التي يستمدها رجل العلم من علمه في المجتمع ، فانبعثت من ذلك رغبة في نفسه أكيدة ، لكن هذه الرغبة تحول دون تحقيقها معارضة الأسرة ، وعدم رضاها على ابتعاده واغترابه عنها ، إما خوفا عليه أو كراهة مفارقته واستيحاشه لصغر سنه وقصوره ، وقد يكون هذا ممكنا بالنظر إلى ما يرى من نشاط دراسي في المدينة على يد المتصدرين للقيام به ، ممن كانت لهم رحلات دراسية إلى مراكش وفاس ودرعة وغيرها ، فيسمع منهم بحكم المخالطة والمجاورة ما له صلة بأخبار تلك المراكز وأنشطتها العلمية والثقافية ، ما ملأ نفسه شوقا وتشوقا إليها ، إلى معاناة ذاك المخاض ، وجوب الآفاق للارتياض ، والنهل من قراح تلك الحياض .

وهنا تجدر الاشارة إلى ما ورد في غير ما مصدر ومرجع لترجمة الرجل ، من أنه قصد درعة عند الامام محمد بن ناصر ، على إثر خروجه من تارودانت ، من غير زيادة في التوضيح ، وهو قول في نظرنا ضعيف ، ذلك أنه لو كان قصد درعة مباشرة لما أمكن له أن يتصل بشيخه المريد المراكشي (ت 1048) لأن بقاءه في درعة استغرق أربع سنوات ، ولو رجع بعدها إلى مراكش لوجد المريد قد غادر الحياة بسنوات .

فمن غير شك في أن المترجم انتقل إلى مراكش ، مباشرة بعد مغادرة تارودانت

ذلك أن سلوك طريق تارودانت – مراكش ، أمر طبيعي ، فهو أقل خطرا وأوفر رفاقا باستمرار ، من طريق تارودانت – درعة ، فلا ريب أن المترجم سلك طريق مراكش مع القوافل والسيارة ، ومع مرافقين من تارودانت .

وقد يكون الباعث له أيضا وجود أحد أقربائه أو أحد أصدقاء الأسرة موجودا بمراكش ، فيقصده وينزل عنده ، ريثما يدبر أمره ، ويستبين وجهته ، ويقرر مصير رحلته ، وهو طفل غرير مقبل على المجهول راميا بنفسه في متاهة سفر لا يعرف قراره .

وخلاصة القول أن محمد بن سليمان كان جريئا وطموحا في رحلته الدراسية تحفزه جملة من العوامل والأسباب ، منها ما هو واضح ، ومنها المستتر . منها رغبته الأكيدة والقوية في طلب العلم واستفادته من رجاله ، ويبرر لنا ذلك ، تطوافه المستمر على عدد من المراكز العلمية وشيوخها المشهورين ، حريصا كل الحرص على أخذ ما عندهم من بضاعة ، من ذلك حرصه على تعلم العلوم الرسمية التي تفتح له أبواب حياة كريمة واعتبار اجتماعي ، وظل يبحث عمن يفيذه ، لكنه «لم يظفر في بلاد المغرب من يشفي غليله في ذلك»[44] ، إلى أن وصل فاسا ، فزجره شيخها الصوفي محمد بن عبد الله معن الأندلسي (978 – 1062 هـ)[45] . عن تعلم هذه العلوم ، وأمره بالرجوع إلى تارودانت ، ليسترضي أبويه «والأخذ بخاطرهما»[46] .

ولعل هذا الطموح والحرص على الاستفادة ما جعل المترجم ينتقل خلال هذه الرحلة الأولى بين درعة ومراكش وسجلماسة وتافيلالت وتادلا والزاوية الدلائية وفاس ...

في درعة :

كانت بلاد درعة في القرن (11 هـ) منطقة حافلة بالمدارس وكذا الزوايا التي ساهمت في الحياة العلمية والصوفية بجنوب المغرب ، بفضل الجهود التي كان يبذلها عديد من الفقهاء والعلماء والمدرسين ، الذين استقروا في هذه المراكز ، وتجردوا لنشر العلم والتربية الصوفية ، سواء كان هؤلاء من أبناء المنطقة أو من خارجها ، فتصدروا للتدريس والتوجيه والتأليف ، والارشاد لمن يقصدهم من الطلبة والمريدين من كافة جهات المغرب .

ومن هذه المراكز المشعة التي شهدت درعة نشاطها العلمي والثقافي في هذا القرن : (دادس ، زاوية ابن مهدي ، تاكادارت ، زاوية سيد الناس ، زاوية سيدي

على يد ثلة من المدرسين والقضاة ، القائمين بالقاء الدروس في بعض مساجدها ، وفي مقدمتها (الجامع الكبير) ، منهم بلقاسم الهوزالي (ت1048 هـ = 1639 م) ، وعبد الرحمن بن الوقاد ، الفقيه المحدث (ت 1057 هـ = 1647 م) ، وعبد الرحمن التامانارتي (ت 1060 هـ = 1650 م) ، ومنصور الهوزالي (ت 1074 هـ = 1663 م) ، وغيرهم ممن انكبوا على التدريس والقضاء ونفع العباد ، كما يخبرنا بذلك التامانارتي في الفوائد في غيرما موضع .

وهناك بعض من هذا النشاط كذلك في بعض الزوايا والقرى الواقعة في سفوح الجبال المحيطة بتارودانت ، كمركز (تيبوت) وزاوية (تافيلالت) السالفة الذكر ، يجتهد فيها مجموعة من الفقهاء المدرسين كأحمد بن الحسن بن عبد الله الأديب (ت 1052 هـ 1642 م) ، وعبد العالي بن عبد الرحمن الدرعي (ت 1057 هـ = 1647 م) ، الذي كان يتولى التدريس بهذه الزاوية إلى أن استقدمه التازروالتيون إليهم[41] كما كان هناك غير هذه المراكز ، مداشر وقرى يقوم فيها بعض الفقهاء بعمل مشابه ، انقطعوا فيها مجتهدين في التعليم والارشاد ، ويأوى إليهم الطلبة من كل الآفاق كخلايا النحل رائحين غادين .

وخلاصة القول كانت تارودانت في منتصف القرن (11 هـ) من بؤر الصراع السياسي ، والتوتر الاجتماعي ، بما شهدته هذه الفترة من أحداث وتغيرات ، كان لها الأثر في الحياة الثقافية كسائر أوجه الحياة العامة بالمدينة ، استطاع بعض من تحملوا من أرباب العلم أن يحافظوا على بصيص من النشاط العلمي بها ، في صبر وإرادة ، رغم ما يتلاطم من حولهم من أمواج الأحداث ، ويتماوج من عوامل وملابسات .

في هذه الفترة المضطربة ، نشأ محمد بن سليمان نشأته الأولى ، التي لم يشر إليها مترجموه إلا في عبارات موجزة جدا ، لاتتعدى جملة واحدة ، وهي مرحلة الاتصال بـ (الكتاب) و(الفقيه) لحفظ القرآن ، والالمام ببعض الفنون الأمهات ، كمرحلة ابتدائية في السلم الدراسي المتبع عصرئذ ، لايمكن تخطيها دون استيعابها .

إذا كنا نجهل تفاصيل هذه المرحلة ، فلا يمكنه أن يشذ عن هذه القاعدة إلا بمقدار ما يكون مستعدا للاستفاذة المبكرة ، لما يتوفر عليه من استعداد يجعله يحظى بمعارف المرحلة في وقت وجيز ، وفي سن مبكرة .

وتخبرنا مصادر ترجمته عن خروجه من تارودانت فارًّا من أسرته – أو أبويه – دون معرفة أسباب ذلك ودواعيه ، ودون الاشارة إليها من قريب أو بعيد ؛

والسير ...[56].

وحين نتوقف مع المترجم في تامكْروت ، طيلة أربع سنوات ، لمعرفة أحواله وظروفه الدراسية ، وعلاقته الاجتماعية بمن كانوا يدرسون معه هناك ، فلا نستطيع أن نتعرف على تلك الظروف والملابسات خلال تلك المدة ، ذلك لانعدام المعلومات والمعطيات ، فمن الصعب التعرف على ما إذا كان المترجم له اتصال بدراسة هذه العلوم العقلية التي شغف بدراستها فيما بعد ، في الفترة التي لازم فيها ابن ناصر .

لذا يَبْدُو بالنظر إلى ما عرف عن ابن ناصر من اقتصاره على علوم الحقيقة والشريعة ، إن اتصال المترجم بالعلوم الرسمية ، ربما حصل له في غير تامكورت ، فقد يكون اتصاله بها في (دادس) أو في (زاوية ابن مهدي) لما لشيوخهما من عناية بهذه العلوم ، حتى أن بعضهم وضع فيها عدة مؤلفات في نفس الفترة[57] .

ويمكن – والحالة هذه – أن يتعرف على المعلومات الأولى خلال وجوده في هذه المنطقة ، ثم ازداد انهماكه على مدارستها في المراحل التالية ، التي كان فيها «شديد البحث عمن يتقن بعضها»[58] .

وقد تبتدىء معرفته وانشغاله بهذه العلوم بواسطة من يلتقي بهم من أترابه الطلاب نتيجة المرافقة والمخالطة والمدارسة ، وتبادل المناقشة والمعلومات ، إن لم يكن تلقاها عمن كانوا يخصصون لتدريسها أوقاتا وانصابا ضمن المواد الدراسية في المراكز السالفة الذكر .

ويستفاد مما ذكره أبو سالم العياشي[59] إن للمترجم تنقلات عدة بين درعة وتافيلالت وسجلماسة ، أخذ منها واستفاد على قدرما يجد ويجتهد في التحصيل[60] . مثل (مدغرة ، كلميمة ، فركلة ، سجلماسة...) وهي عهدئذ شهدت حركة دراسية مهمة ، كانت تدرس بها علوم الفلك والرياضيات والحساب والجبر والتوقيت ، على يد أمثال عبد الهادي بن عبد الله بن طاهر الحسني (ت 1056 هـ / 1646 م)[61] ، وأخيه محمد بن عبد الله (ت 1079 هـ / 1678 م)[62] ، وأحمد بن محمد التجموعتي الكلميمي (ت 1080 هـ / 1669 م)[63] ، وأخيه محمد بن محمد (ت 1088 هـ / 1677 م)[64] ، وعلي بن محمد جبور الفركلي (ت بعد 1070 هـ / 1659 م)[65] ، وأبي بكر بن الحسن التطافي (ت بعد 1055 هـ / 1646 م)[66] ، ومحمد بن غبد الله الحسني ، (ت بعد 1072 هـ / 1662 م)[67] ...

كان اهتمام هؤلاء يزاوج بين العلوم العقلية والنقلية والذوقية الرائجة واعتنوا بتدريسها للطلبة ، وعالجوها بالتأليف والتصنيف ، ومن غير شك ، تم اتصال

المترجم ببعض هؤلاء ، فيما كان يجوس خلال تلك الديار كغيره ممن قصدها من طلاب العلم الآفاقيين وغيرهم .

وحوالي سنة(1051 - 1052 هـ) ، يكون ابن سليمان قد استوفى مكوثه بتامكروت أربع سنوات ، ويحصل خلالها على حظ من المعرفة تؤهله لبلورة معالم آرائه العلمية ، وأسس مواقفه الفكرية وتوجهاته الثقافية ، يغادرها إلى سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة ، التي لانعرف عنه فيها شيئا ، يمكننا من معرفة تنقلاته بالتحديد .

في تافيلالت :

ففي هذه المرحلة بالذات ، لا تسعفنا مصادر ترجمته إلا بأخبار عمومية وصيغ عامة ، تجعلنا في أمر مريج من رحلة المترجم في بلاد سجلماسة وتافيلالت إلى بلاد القبلة ، التي تجول فيها[68] ، فلا ندري أكانت رحلة استطلاع وسياحة ، أم هي رحلة من أجل العلم والتحصيل والتكوين كما نجهل تفاصيل تنقلاته وأحواله في هذه المناطق ، ولا الجهة التي قصدها بعد مفارقة مناطق تافيلالت ، أهي الزاوية الدلائية مباشرة ، أم هو عرج على مراكش من قبل أن ينتقل إلى تادلا والدلاء .

وحين يخبرنا أبو سالم العياشي عن رحلة المترجم في تلك المناطق القبلية يورد الخبر في صيغة عامة ، يفهم منها أن ابن سليمان غادر هذه المناطق بعد أن استكمل جولته فيها إلى مراكش ، وليس إلى الزاوية الدلائية ، التي سيكون دخوله إليها بعد مطارقة مراكش .

غير أن المحبي (1061 - 1111 هـ)[69] أورد على لسان المترجم أنه دخل إلى مراكش من بلاد القبلة سنة (1052 هـ) ، حيث ذكر أنه دخل إليها قبل سنة (1060 هـ) بثمانية أعوام ، وهذا معناه أن مجيئه إلى مراكش آتيا إليها من بلاد درعة ، كان سنة (1052 هـ) ، مما يجعل بقاءه في تلك الناحية لا يتعدى سنة أو بعض سنة .

وفي هذه السنة (1052 هـ) ، رأى ابن سليمان عيسى السكتاني لأول مرة يتزاحم عليه الطلبة لتقبيل يده ، فاقترب منه المترجم بدوره للتبرك منه ، فانحنى عليه السكتاني دون غيره وقال له : «أجزتك بكل مروياتي»[70] .

في مراكش :

ومع أننا لا نملك من المعلومات ما نعتمد عليه في معرفة المدة التي قضاها المترجم

في مراكش هذه المرة ، وكذلك أحواله وظروفه بها ، لابد وأنه توقف بها فترة من الزمن ، فيتصل بمن لابد أن يتصل بهم من أبناء بلده وأصدقائه ومعارفه ، ممن كانت له بهم معرفة سابقة . ويستطلع أخبار أسرته بتارودانت من ملاقاته بمن جاء منها قريبا أو استقربها(71) . سيما وأنه انقطعت عنه أخبارهم ، وانقطعت أخباره عنهم .

ومن الطبيعي أن تكون فترة توقفه بمراكش ، فترة استراحة وتجديد للطموح والنشاط ، واستعداد للسفر بما يتطلبه من عون مادي يستعين به على قضاء المآرب الضرورية وغيرها .

وحتى يستطيع أن يؤمن نفقاته ، ويضمن قوته ، لابد وأن يتعاطى للصناعة اليدوية التي يتقن منها فنونا عديدة ، استطاع أن يوفر منها ما ينفقه على مستلزمات التفرغ لطلب العلم ، من أكل ولباس وكتب ومستتبعاتها الضرورية ، سواء في مراكش أو غير مراكش ، وهذا هو السر في إتقان الرجل لعدة صنائع وإجادتها ، كتَسْفِيرْ الكتب والخرازة والطرز والصباغة(72) ، وهذه صناعات كلها ذات صلة بمعالجة الجلد وملحقاته .

وليس عجبا أن يلتجيء ابن سليمان إلى تعاطي الخرازة وغيرها من الصنائع وقد نشأ نشأته الأولى في أواسط الصناعة التقليدية بتارودانت التي لم تكن أقل رواجا وازدهارا من مراكش وفاس ومكناس ...

لذا لا يستغرب المرء من كون الرجل أجاد هذه الصناعات إذا علم مدى انتشارها في أوساط مختلف فئات المجتمع المغربي ، بما في ذلك العلماء والفقهاء والطلبة ، فضلا عن القاعدة العريضة من الشعب عصرئذ ، حيث كانت الصناعة التقليدية من أهم القطاعات الانتاجية والأكثر استيعابا لليد العاملة ، وأوفر مردودية .

فليس لأمثال ابن سليمان الطامحين في مثل هذا الوسط من سبيل لتحقيق أهدافهم والوصول إلى غاياتهم ، إلا التوفيق بين معطيات الواقع وما يتيح من الفرص والوسائل لتحقيق تلك الأهداف .

ثم ماذا يمكن لشاب غادر بلاده غير معتمد إلا على الله وما تجيد يمينه أن يعمل حتى يضمن لنفسه الاستمرار في طلب العلم ، والبحث عن أربابه من غير أن ينتظر منحة تأتيه ، أو هدية تأتي إليه ؟ ؟

ذلك هو السر في إجادة المترجم لعدة صناعات بالعمل المستمر ، في موازاة الاجادة في استيعاب العلم واكتساب المعرفة ، عبر مراحل البحث واكتشاف المجهول ، فنجده حين نزل بمراكش لملازمة دروس السكتاني والميرغتي ، يمول نفسه بصنع أزواج (السباط) كل خميس ، فيبيعها لينفق ثمنها على نفسه طيلة أيام الأسبوع(73) .

في تادلا :

بعد توقف المترجم بمراكش مدة لا نستبين تحديدها ، استأنف رحلته من جديد إلى ما وراء مراكش ، وبالتقريب إلى بلاد (تادلا) ، التي كان من المرجح أن يمر بها قبل الالتحاق بالزاوية الدلائية بالنظر إلى العامل الجغرافي ، ونزل عند الشيخ الصوفي محمد بن الحسن الدادسي الواويزغتي(74) بكيفية تدعو إلى الاستغراب ، ذلك أن المترجم عندما كان يمر ببلاد تادلا ، ساقته الأقدار إلى حيث يوجد الشيخ المذكور ، من غير أن يعرف سبب ذلك .

وفي هذا الصدد ينقل لنا المحبي وصفا حيا للكيفية التي تم بها اللقاء بينهما ، ينقله على لسان المترجم الذي يحكي عن نفسه قائلا : « ... جذبني الشوق إليه ، ولم أملك نفسي حتى دخلت بلده ، فلقيني رجل خارج إلي ، وقال لي : أمرني الشيخ أن أخرج إليك وآتيه بك ، فلما دخلت عليه رفع إلي بصره ، فوقعت مغشيا علي بين يديه ، وبعد حين أفقت فوجدته يضرب بيده على كتفي ويقول : «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه»(75) ، فأمرني بملازمته ، ومذاكرة أولاده بالعلم ، فقلت له أني طلبت كثيرا ، لكني إلى الآن ما فتح الله علي بشيء ولا أقدر على استخراج كتاب ، ولا الأجرومية(76) ، وكنت إذ ذاك كذلك فقال لي أجلس عندنا ، وأقرأ أي كتاب شيئت ، في أي علم شئت ، ونطلب الله أن يفتح لك ، فجلست ودرست طائفة من الكتب التي قرأتها ، وكنت إذا توقفت في شيء أحس بمعان تلقى على قلبي ، كأنها أَجْرَامٌ ، وغالب تلك المعاني هي التي كانت مشايخنا تقررها لنا ولا أفهمها ، ولا أتذكرها قبل الآن»(77) .

ففي هذه القصة ما يعطينا فكرة عن أحوال الرجل في هذه المرحلة من رحلته الدراسية ، من ذلك طموحه الواسع ، ورغبته في استزادة العلم ، إذ نجده حين أمره الشيخ الواويزغتي بالنزول عنده ويعلم أولاده العلم ، يعتذر له بكونه ليس

أهلا لذلك ، ولا مهيئا لتلقين العلم لغيره بعد ، لقلة ، بضاعته وقصوره ، مع أنه كثير الأسفار والتجوال من أجل العلم ، ولأنه لا يستوعب ما يتلقاه من علوم ، لكثرة نسيانه وشدة ذهوله عما يدرسه .

ومهما يكن الأمر ، فإن هذه الحال التي يشكو منها الرجل ، تنبىء عن نوازع الطموح الزائد في التحصيل ، وفهم علمي كبير ، جعله يستشعر دوما قلة ما أخذ ، وضآلة ما حصل ، الشيء الذي يدفع به للبحث عن الشيوخ للأخذ عنهم والاستفادة منهم ، دائم التحفز والاستطلاع لمناهل العرفان والالمام بما يروج من فنون وعلوم على قدر طاقته وظروفه .

ولا يخفى ما حصل لابن سليمان عند الشيخ من فتح ، بفضل بركته التي يعترف بها بنفسه ، فينقدح هناك زناد فكره للاستيعاب أكثر ، ويتنور قلبه بالمعارف ، وتظهر عليه آثار البحث والتعلم ، وتينع ثمار الرحلات والأسفار ، بما فتح الله عليه به .

مكث المترجم عند الشيخ الواويزغتي بتادلا مدة من الزمن ، قد لا تتجاوز في أقصاها ثلاث سنوات ، قضاها في ملازمة دروس هذا الشيخ وخدمته ، وأخذ منه العلم والتصوف . ثم استأنف رحلته الطموحة في اتجاه فاس ، حوالي سنة (1056 – 1057 هـ) ، فعرج في طريقه على الزاوية الدلائية بعض الوقت[78] ، لما لها من شهرة ونشاط علمي وسياسي ، وربما حضر بها بعض الدروس التي كان يلقيها علماء ومدرسون دلائيون وغيرهم ، أمثال المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي (ت 1059 هـ / 1649 م) ، وأبي عمر بن محمد بن أبي بكر (ت 1069 ه / 1658 م) ، وأحمد بن محمد ابن أبي بكر (ت 1085 هـ / 1665 م) ، والطيب بن المسناوي (ت 1077 هـ / 1668 م) ، ومحمد المرابط الدلائي (ت 1085 هـ / 1678 م) وآخرون غيرهم[79] .

وقد يبقى المترجم هناك للأخذ فترة من الوقت سنة أو بعض سنة ، قبل متابعة الرحلة إلى فاس التي يبدو أنه كان يتشوق إليها بقلب آمل ونفس غامرة لمزيد الدراسة والمعرفة ، خاصة في علوم الحكمة والهيئة والمنطق وما سواها بعدما لم يجد من يشفي غليله منها حسب تعبير العياشي .

ونشير هنا إلى أن المترجم حين دخل إلى الدلاء ، للاتصال بعلمائها وأساتذتها والطلبة المنقطعين بها ، لم يكن الحسن اليوسي (ت 1102 هـ / 1690 م) قد دخل إليها بعد ، وهو معاصر ابن سليمان وقرينه ، ذلك أن اليوسي لم يرد على الدلاء

إلا سنة (1060 هـ) ، وهي السنة التي كان ابن سليمان قد رجع فيها من تارودانت إلى مراكش بعد زيارة أسرته على إثر رجوعه من فاس حوالي سنة (1058 هـ) ، ولعل هذا ما يفسر سكوت اليوسي عن ذكر ابن سليمان في مؤلفاته ، كما ذكر كثيرين من معاصريه وقرنائه ورفقائه وأصحابه الطلبة والفقهاء والعلماء والشيوخ والأساتذة ... خلال رحلته التي قام بها في درعة وسوس والدلاء وفاس ومراكش . وهذا ما يؤكد عدم اتصاله بالمترجم رغم معاصرتهما(79) مكرر .

في فاس :

دخل ابن سليمان إلى فاس وكله أمل في أن يجد فيها من الأساتذة من يلبي رغبته في دراسة العلوم الرسمية ، ونفسه يغمرها الشوق إلى النهل من حياض علمائها ومدرسيها ، لكن هذه الرغبة انطفأت حرارتها ، وتراجع عن دراستها ، بسبب اتصاله بالشيخ الصوفي الشهير بفاس في هذا العهد محمد بن عبد الله بن معن الأندلسي(80) صاحب الزاوية المخفية ، بفاس ، الذي أثر فيه خلال المدة التي رافقه فيها ، وغير من اتجاهه في اهتمامه بهذه العلوم ، إلى العناية بعلوم الشريعة والحقيقة ، وألزمه في الأخير الرجوع إلى أسرته وأبويه لاسترضائهما في الاذن بمتابعة الرحلة للطلب .

وخلال تلك المدة التي قضاها ابن سليمان في ملازمة هذا الشيخ ، تم اتصاله بعدد من الطلبة الرفاق ، الذين كان لهم ذكر وشهرة علمية وصوفية بفاس كانوا زملاء ابن سليمان في الأخذ عن الشيخ الأندلسي بزاويته ، كعبد القادر الفاسي (ت 1007 – 1091 هـ) ، ومحمد المهدي الفاسي (1033 – 1109 هـ) ، وعبد الرحمن الفاسي (1040 – 1096 هـ) ، وابن الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله (1042 – 1120 هـ) .

ومن غير شك أن ابن سليمان قد أخبر شيخه الأندلسي بما كان له مع أبويه وسبب خروجه من تارودانت هاربا ، مما يفسر إلزام الشيخ له بالرجوع إليهما وإحياء صلة الرحم مع الأهل والأحباب .

ويعتبر التزام ابن سليمان بتنفيذ وصية شيخه هذا ، مؤشرا بارزا على الاثر الذي خلفه هذا الشيخ في نفسه من توجيهات ، والتغيير الذي أحدثته فيه سيما وأن ذلك الحرص الشديد الذي كان يحدو المترجم قبل الاتصال به قد خبا بعد دخوله إلى فاس .

ويؤكد هذا أيضا وفاؤه لتنفيذ وصية الشيخ ، رغم ما في ذلك من متاعب ومخاطر في مسالك الطريق من فاس إلى تارودانت ، خاصة وأن هذه الفترة كانت فترة مضطربة بالفتن المتتالية ، التي شملت كافة مناطق البلاد في الشمال والجنوب . مما يجعل اختراق هذه المسافة أمرا صعبا .

وقد يكون الباعث للمترجم على ذلك ، ما يوقظه في نفسه الشعور بالندم من عتاب وتأنيب ، وما يبعث فيها من الرغبة في التوبة مما صدر منه من هجران الأهل على غير رضى ، وهي الصورة النفسية التي ارتسمت في نفسه ، نتيجة إدراك سوء فعله ، بعد اتصاله بالشيخ الأندلسي ، الذي ربما بين له عاقبة موقفه من مفارقة الأسرة على الحالة المذكورة ، من جراء سورة غضب واندفاع شباب ، فيغذ السير إلى تارودانت ، وفي نفسه مزيج من الشوق والاحساس بالذنب إلى لقاء الأحباب ، بعد غربة دامت أزيد من سبع سنوات . غير عابىء بما يلاقيه في الطريق من متاعب وصعاب .

الرجوع إلى تارودانت :

إدراكا لما تستوجبه حقوق الوالدين وطاعتهما ، قفل ابن سليمان راجعا إلى مسقط رأسه بتارودانت ، بعد رحلة دراسية طويلة ، استفاد منها العلم والتجربة ، واكتسب منها بأحوال البلاد معرفة واختبارا بالحياة والناس ، وبالتالي ما عليه نحو أبويه من حقوق وواجبات ، والسعي في رضاهما وتعهدهما والسعي في تطييب نفوسهما بالاحسان والطاعة ، وهو طالب علم ساقط الحجة في الجهل بما أوجبه الله للآباء مراعاة لحقوقهما ، والعمل بما يرضي الله في رضاهما .

وقد جاء ابن سليمان إلى تارودانت لزيارة أبويه ، تكفيرا عن ذنبه ، وإحياء لصلة الرحم مع الأقرباء والأحباب والأصحاب ، ليزيل ما في النفوس من كدر الهجران ، وألم الفراق ، وشوق البعاد ، وذلك قبل سنة (1062 هـ) ، وهي السنة التي نجده يجدد الأخذ فيها على السكتاني وابن سعيد الميرغتي الاخصاصي للمرة الثانية(81) ، إذ سبق أن التقى به قبل الآن بثمانية أعوام كما سبق الذكر .

وقد مكث المترجم مع أسرته بعد رجوعه من فاس ، فترة من الوقت غير معروفة بالتحديد ، استرجع فيها ذكرياته مع الأقران والأصدقاء في ملاعب الطفولة والصبا ، عبر زقاق المدينة ودروبها ، بعثت تلك الذكريات في نفسه روحا جديدة ، وأملا واعدا وعزما أكيدا للمضي في تحقيق طموحاته العلمية قبل أن ينتقل إلى

مراكش للمرة الثالثة والأخيرة .

ويمكن اعتبار هذه الفترة التي مكث فيها مع أسرته بعد غيبة طويلة ، فترة استراحة وتقييم لهذا الشوط الأول من رحلته ، استكان فيها إلى الراحة والتأمل النفسي ، بعد تجوال طويل الذيل ، طافح بالآلام والآمال ، آلام الوحدة والغربة وفراق الأهل ، ومتاعب التنقل المستمر ، ومعاناة السفر وهو بين أسرته وأهله ، ترعاه القلوب والأعين بينهم ، يمنحون له ما كان يفتقده في بلاد الغربة من عطف وحنان ، ومن عناية وتقدير ، وهو شاب يافع متأجج نشاطا ومتوقد حماسا لتحقيق ما كان يأمله في نفسه من درجات علمية مشرفة ، تمكنه من نيل احترام الناس وتقدير المجتمع ، ومن الأكيد أن وجوده بين أهله وذويه جعله مغمورا بالاطمئنان النفسي الذي ربما يبعث فيه بواعث الخلود إلى النفس واسترجاع ذكريات الرحلة الأولى ، وما اكتسبه منها من معارف وتجارب ، تدعو إلى تقييم معاناته خلالها ، واستنتاج العبرة واستخلاص النتائج ، في جو ترتاح له نفسه واطمأن ضميره ، بعد إزالة ما في نفوس الأهل من حزن وخوف عليه .

كانت هذه – ربما – مشاعر الرجل وهو بين أسرته بتارودانت ، قبل أن يستأنف رحلته من جديد ، وهذه المرة من غير رجعة إلى تارودانت ، التي سيغادرها نحو بلاد المشرق ، ويقضي هناك بقية حياته ، وينال من درجات العلم والمعرفة ، والتكرمة والاحترام والتقدير والشهرة ، ما لن يكون متاحا له في تارودانت .

إلى مراكش مرة أخرى :

في الوقت الذي كان ابن سليمان يتردد على مراكش خلال رحلاته وتنقلاته بين درعة وتادلا وفاس ، كانت مراكش مركزا نشيطا في مختلف أوجه الحياة ، وفي وضعية تسودها المتناقضات السياسية ، وما يلابسها من مؤثرات ، ومن المفيد أن نلم بالخطوط العريضة للوضعية السائدة فيها في ظل الدولة السعدية بخصوص الحياة الثقافية التي تهمنا هنا .

لقد شهدت هذه المدينة في عهد السعديين نشاطا ثقافيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا واسعا ، وبلغ أوجه في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي ، في صدر القرن الحادي عشر الهجري ، باعتبارها عاصمة الدولة السياسية ، ومركزها الثقافي الحافل ، بفضل ما توارد عليها من مختلف مناطق البلاد من رجال الثقافة والعلم والسياسة من سوس والأطلس الكبير ، والمهاجرين الأندلسيين ، ومن المغرب

الأوسط ، وحتى من المشرق العربي ...

فأقيمت في مساجدها ومدارسها وجوامعها حلقات الدراسة والأبحاث العلمية والمناظرات ، بين مختلف العناصر المستقطبة – بفتح الطاء – إليها ، فغدت أزهر الحواضر المغربية .

وقد ظل هذا النشاط الثقافي مستمرا طيلة عهد المنصور ، إلا أن الصراع السياسي الذي قام بين أبنائه وبعض رؤساء الزوايا في جهات متعددة من البلاد ، كانت له انعكاسات سلبية على كافة مجالات الحياة ، بما في ذلك النشاط الفكري والثقافي ، الذي يقوم به رجاله ، ولم يبق منه إلا ما استطاعت طائفة من رجال العلم المتحملين لأعباء الظروف التي تعيشها البلاد ، والمتجردين المستنكفين منهم إلا عن تحمل أداء رسالة العلم ونفع العباد ، بالتعليم والارشاد ، ممن استطاعوا أن يسايروا الأوضاع المضطربة بصبر وهدوء وكياسة ، أمثال محمد بن عبد الله الرجراجي (ت 1022 هـ / 1614 م) ، وعبد العزيز الفشتالي (ت 1031 هـ / 1622 م) ، وأحمد بن محمد السالمي (ت 1040 هـ / 1631 م) ، ومحمد بن يوسف التملي (ت 1048 هـ / 1638 م) ، وأحمد المريد المراكشي (ت 1048 هـ / 1638 م) ، ومحمد ابن يوسف الولاتي (ت 1050 هـ / 1640 م) ، وأبي مهدي عيسى السكتاني (ت 1062 هـ / 1653 م) ، وأبي بكر السكتاني (ت 1063هـ / 1653م) ، ومحمد المزوار المراكشي (ت 1065هـ / 1655 م) ، ومحمد بن سعيد الميرغتي الاخصاصي (ت 1089 هـ) ... وغير هؤلاء ممن استدام معهم هذا النشاط محتفظا ببعض رمق من حياة إلى أواخر القرن الحادي عشر .

فلما دخل المترجم إلى مراكش في هذه المرة الأخيرة ، وجد بها بعض هؤلاء ممن لا يزالون على قيد الحياة ، فيقومون بالتدريس في بعض مساجد المدينة ، كعيسى السكتاني ، والميرغتي ، ولازم دروسهما ، وأخذ ما عندهما ، قبل أن يغادر مراكش نحو الجزائر إلى المشرق .

ومع أن كتب التراجم لا تذكر من شيوخ المترجم بمراكش في هذه المرة إلا هذين فقد يكون له اتصال بغيرهم من الشيوخ ، ويلازم بعض الوقت مجالس دروسهم . وأهم من استفاد من دروسهم ، هو العلامة السكتاني[82] ، ومحمد بن سعيد الميرغتي[83] ، أخذ عن الأول الفقه والحديث والأصول ، وأخذ عن الثاني علوم الهيئة والحكمة – الطب – والمنطق ...

في الجزائر :

كانت المدة التي قضاها ابن سليمان في مراكش – وهو يلازم دروس أبي مهدي السكتاني ، وابن سعيد الميرغتي ... وغيرهما ، آخر مراحل رحلته الدراسية ، وتنقلاته في ربوع المغرب ، كما أن السكتاني والميرغتي ، آخر من أخذ عنهم من شيوخه المغاربة .

وتحدثنا المصادر أنه اتجه بعدها نحو الجزائر ، ونزل عند الشيخ سعيد بن ابراهيم قدورة(84) غير أن هذه المصادر وكعادتها ، لم تذكر السنة التي غادر فيها المترجم مراكش متجها نحو الجزائر ، إلا أننا نستطيع أن نصل إلى تحديد تلك السنة التي فارق فيها شيوخه بمراكش بالتقريب إذا علمنا أن وفاة السكتاني كانت سنة (1062 هـ) . كما سبق أن علمنا كذلك أن الروداني ذكر عن نفسه أنه جدد عنه الأخذ بعد رجوعه من فاس سنة (1060 هـ) ، ويحتمل بناء على هذا المعطى أن يكون ابن سليمان قد غادر مراكش متجها نحو الجزائر ، ما بين سنتي (1061 – 1062 هـ) ، في فترة كان المغرب يشهد فيها تطورات سياسية هامة ، بين الدلائيين وأبناء المنصور السعدي والأشراف السجلماسيين وغيرهم من أرباب الزوايا وشيوخ التصوف سواء في شمال البلاد والوسط والجنوب ... خاصة منها مناطق المغرب الشرقي على الحدود المغربية الجزائرية ، بين حركة الشريف مولاي محمد السجلماسي وبين أتراك الجزائر ، وكانت مناطق تلمسان ووجدة وبني يزناسن مسرحا للمواجهات العسكرية ، وتحركات سياسية بين هذا الشريف وأتراك الجزائر ، أسفرت عن إبرام اتفاقية للهدنة بين الطرفين لصالح الشريف الذي استطاع أن يحمل الباشا التركي بالجزائر على إبرام الاتفاقية المذكورة ، تحت الضغط المتزايد لحركته التي أصبح خطرها يهدد مدينة تلمسان ومناطقها الجنوبية ، ومن جهة أخرى ، كانت السواحل الجزائرية في نفس الوقت تحت التهديدات والأخطار التي تشكلها المناوشات العسكرية التي تقوم بها الأساطيل البحرية الأوربية في سواحل الجزائر(85) .

ومن غير شك كان ابن سليمان يسمع ويرى من هذه الأحداث وقلاقلها حين كان يجتاز هذه المناطق نحو الجزائر ، وقد يعاني بسببها بعض المتاعب والمصاعب .

وأما عن مدة إقامته عند شيخه المذكور ، فقد لا يتجاوز أقصى مداها السنتين التاليتين ، إن لم يكن قد غادرها قبل ذلك ، لأننا سنجده يتصل بمصر بالشيخ أبي

الحسن علي الاجهوري المصري ، كما سيتضح من السياق التاريخي لرحلة المترجم بين الجزائر واصطامبول ومصر .

وخلاصة القول فقد لازم ابن سليمان شيخه الجزائري إلى ما قبل سنة (1066) وهي السنة التي توفي فيها الشيخ قدورة ، وأخذ عنه وعن غيره ممن كانوا معاصرين له ، وتصدروا معه للتدريس بالجزائر ، كقاضي المدينة محمد بن عبد المومن الجزائري[86] ، ومن أهم من استفاد منهم الشيخ قدورة ، وهو معتمده في الحديث والتصوف[87] .

وقد شارك ابن سليمان في ملازمة قدورة وغيره بالجزائر ، ثلة من قرنائه الطلبة الذين كانوا هم أيضًا يلازمون الشيخ المذكور في نفس الفترة ، أمثال : أبي مهدي عيسى الثعالبي (ت 1080 هـ) ، ومحمد بن خليفة الجزائري (ت 1094 هـ) ومحمد بن يحيا الشاوي (ت 1096هـ)[88] ، ومحمد بن عمر المنقلاتي ، المتوفى سنة (1100 هـ)[89] ، ومحمد بن عبد الكريم الفكون الجزائري (ت 1102 هـ)[90] ، ومحمد بن أحمد الكماد القسمطيني (ت 1116 هـ)[91] .

وفي هذا الصدد أشار أبو سالم العياشي إلى أن المترجم لم يستفد فقط من الشيخ قدورة ، بل أخذ عن غيره كذلك ، لكنه لم يذكر لنا أسماءهم[92] وحين نبحث في مصادر تاريخ هذه المنطقة في هذه الفترة المتحدث عنها ، نقف على جملة من المعطيات والمعلومات ، تتمثل في قيام حركة علمية وصوفية ودراسية ، لم تقتصر على الجزائر وحدها ، ظهرت معها أسماء لامعة وعديدة لفقهاء ونحاة ومحدثين وأدباء ومؤلفين وأصحاب الأحوال والزوايا ... ممن كانوا يقومون بمهمة التدريس والارشاد والتأليف في علوم متعددة ، لكن يصعب التمييز ومعرفة من أخذ عنهم المترجم من غيرهم ، باستثناء سعيد قدورة ومن ترجم الأحوال والقرائن اتصاله بهم مثل علي بن عبد الواحد الأنصاري[93] .

ولسنا بحاجة إلى تأكيد ما ورد عند أبي سالم العياشي عن تقلبات المترجم في الجزائر وما إليها من البلاد الافريقية الأخرى ، فهو قرينه ومعاصره وصديقه ومعاشره ومجالسه ... ولاشك أن ابن سليمان حكى له عن رحلته نحو الشرق وذكر له بعض الشيوخ الذين أخذ عنهم ، مقتصرا في ذكر الجميع على بعض من انتفع بهم أكثر كسعيد قدورة ، وهذا ما يفيده السياق الاخباري الذي اعتمده العياشي في تسجيل أخبار ابن سليمان عبر بلاد المغرب وافريقيا والمشرق ...

وهذا ما يلاحظ بالمقارنة مع ما كتبه المحبي عن المترجم من زيادات تكميلية

لما عند العياشي ، استقاها من مصادر أخرى ، منها بعض تلاميذ ابن سليمان أنفسهم ، ومن جهة أخرى يحدثنا أبو سالم العياشي عن مشاهداته ومن التقى بهم في كل من الجزائر وتونس ، التي شهدت في هذه الفترة تأسيس عدد من المدارس قبل هذا الوقت ، على يد العثمانيين في كل من باجة وقفصة وتوزر وقابس والقيروان ، بجانب جامع الزيتونة(93) ، وفي طرابلس الغرب التي اتصل فيها كذلك بعدد من العلماء والفقهاء والطلبة والصلحاء ، وما وقف عليه من المدارس والمساجد وحلقات الدروس التي تعقد فيها ... وفي فترة متقاربة جدا للفترة التي مر فيها ابن سليمان بهذه الجهة .

فإذا كان ابن سليمان قد مر بتلك الناحية ما بين سنة (1062 – 1066 هـ) وتقلب في نواحيها ، واتصل بمن اتصل بهم من العلماء وغيرهم ، فإن العياشي يحدثنا عن نفس المنطقة ما بين سنة (1059 – 1073 هـ) ، خلال رحلاته الحجازية العلمية المتكررة ، ونقل لنا عنها معلومات وحقائق ومعطيات ، لاتبرز الجانب الثقافي فحسب ، ولكنها أيضا تعطينا صورة واضحة عن الجانب الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، فضلا عن المعالم العامة للوضعية الثقافية والنشاط الذي كان قائما بهذا الخصوص في هذا في بلاد الزاب وقاعدتها (بسكرة) ، وتوزر وقابس وطرابلس ، وغيرها من المدن والمراكز التي مر منها العياشي خلال رحلاته الثلاث ، ونقل عنها بموضوعية جلية مشاهداته ولقاءاته بمن بها من أهل العلم والتربية ، وما كان له معهم من مباحثات علمية وذوقية ، وحوار ادبي تظلله روح المودة والصداقة الروحية ، مكنته من الوقوف على حقيقة أنواع الأنشطة العلمية التي يقوم بها هؤلاء الأفارقة ، ومستوياتهم العلمية ، واطلع كذلك على خزائن كتبهم واستفاد من ذلك وأفاد ، وتبادل معهم الكتب والاجازات ، والقصائد والمراسلات حتى بعد مفارقتهم نحو المغرب ، وتمكنت بين الطرفين روابط المودة والألفة وتبادلوا في غمرتها معارف العصر والتعارف الأخوي ، مما مكن العياشي من الاطلاع على أحوال تلك البلاد العلمية والثقافية وغيرها .

وجملة ما نقله العياشي من مواصفات ، تؤكد استمرار هذا النشاط العلمي والدارسي والتأليف في عدد من مدن ومراكز تلك الجهة من شمال افريقيا في منتصف القرن الحادي عشر الهجري ، وهي الفترة التي ارتحل ابن سليمان فيها نحو الشرق ، ووجد فيها ولاشك نفس المواصفات التي نقلها لنا العياشي أو تشابهها ، مما يفسر مضمون ما جاء في رحلته عن المترجم حين قال : « ... ووصل الجزائر وأقام بها

مدة ، وانتفع بأهلها ، كسيدي سعيد بن ابراهيم قدورة وغيره ... ثم دخل كثيرا من البلاد الافريقية»(94) .

وأما عن دخول المترجم متوغلا نحو الشرق ومباينته للجزائر ، فلا ندري أكان ذلك قبل وفاة الشيخ قدورة أم بعدها ، غير أنه من الراجح أن يكون ذلك قبل وفاته ، فلو سلمنا ببقائه مع الشيخ قدورة إلى ما بعد وفاته (ت 1066) فكيف يعقل أن يتحقق اتصاله بالشيخ أبي الحسن الاجهوري بمصر ، والمتوفى في نفس السنة ؟ ! مع العلم أن ابن سليمان لم يتصل بالاجهوري – كما سيأتي ذلك بعد قليل – إلا بعد رجوعه من اصطامبول . ومعنى هذا أن بقاء المترجم بالجزائر لم يطل ، مما يؤكد مغادرته للشيخ قدورة قبل وفاته بكثير .

وعلى كل ، فابن سليمان – كما ينقل العياشي – يحكي عن نفسه قبيل مغادرة الجزائر أنه «لقي هناك رجلا من أصفياء الصالحين ، وكان يواظب الجلوس عنده ، وهو في الغالب ساكت لا يتكلم ... وذات يوم ضاقت علي نفسي ، ولا أدري أين أتوجه من البلاد ، فجئت إليه – أي الرجل الصالح – فلما جلست عنده قال لي : أنت مسجون عند النبي ﷺ»(95) .

ولنا أن نتساءل عن دواعي هذا الضيق الذي يستشعره ابن سليمان في الجزائر أكان نتيجة صعوبات لقيها هناك ؟ أم أن ذلك مجرد خواطر انتابته بحكم ما يعاني من وحدة واغتراب ؟ ؟ أم أن الأمر في ما يخالجه من ضيق كان مبعثه التطلع إلى مزيد من تحقيق الطموح وارتياد المجهول ، فكان ما اعتراه من مشاعر مظهرا من مظاهر الصراع النفسي بين التحفز الطامح وظروف الواقع وإمكاناته ؟ ؟

على كل حال ، لابد وأن تكون لهذا الشعور أسباب ودوافع موضوعية في حياة الرجل ، سواء كان من ذلك بعض ما ذكرنا أم لا ، بالرغم من انعدام ما يؤكد ذلك أو ينفيه ، لشح المصادر والمراجع التي نتعامل معها للتعريف بحياة المترجم .

فبعد خروج المترجم من الجزائر ، توجه في رحلته يجوب البلاد الافريقية ، وأصبحت تنقلاته فيها غير واضحة تماما ، لانعدام المعلومات التي من شأنها إنارة السبيل ، وكل ما هناك فقد اكتفى كل من المحبي في (الخلاصة) والعياشي في (الرحلة) بالاشارة إلى مرور المترجم بالبلاد الافريقية التي يفهم منها أنها غير مصر ، بدليل اتفاقهما على ذكر تجواله في ما يلي الجزائر شرقا ثم انتقاله إلى اصطامبول ، ثم مصر أخيرا ، ومما يستفاذ منه أنهما – حين يطلقان البلاد الافريقية – لايقصدان في إطلاقهما بلاد مصر ، وإنما يذكرانها بعد ذكر رحلته إلى إصطامبول .

فالعياشي يذكر أن ابن سليمان بعد خروجه من الجزائر « ... ثم دخل كثيرا من البلاد الافريقية ، ثم ركب البحر إلى إصطامبول ...[96]... ثم وصل إلى مصر... وسافر إلى بلاد الصعيد ، وأقام مدة بمدينة (جرجا) إلى أن سافر منها إلى الحجاز ...»[97].

وأما المحبي فيورد الخبر قائلا : «رحل إلى المشرق ... ودخل مصر ... ثم رحل إلى الحرمين»[98] ، من غير زيادة . بينما العياشي يفيدنا بمزيد من التوضيح المتسق والوضع الجغرافي للمنطقة ومراحل تنقل المترجم فيها ، وذلك حين يشير إلى البلاد الافريقية ، وهي في عرف المغاربة (تونس) التي هي امتداد طبيعي للجزائر ، إلى (طرابلس ليبيا) ، تمييزا لها عن إصطامبول الشيء الذي يجعل عبارة المحبي – بمقارنتها مع عبارة العياشي – تتسم بالخلط والغموض ، نتيجة جهله بالمنطقة ومفارقاتها الجغرافية ، التي احتفظت بها عبارة أبي سالم العياشي ، لمعرفته بها ، وإطلاعه على أحوالها وطبيعتها .

ولا غور في ذلك ، فالعياشي حين يحدثنا عن تلك الجهة وعن المترجم فيها ، فهو أعرف من المحبي بها ، وهو كذلك صديق المترجم ومعاشره وبالتالي فهو أولى أن يصدق في مواصفاته وأخباره عن المترجم وتنقلاته من المحبي ، الذي ينقل إلينا عنه بواسطة تلاميذه الاسيويين وغيرهم ، مما جعله يسقط في الخلط والغموض ، وتبعه في ذلك بعض المغاربة المعاصرين[99] .

ولعل الوجهة التي اتخذها ابن سليمان بعد جوبه البلاد الافريقية – كما سبقت الاشارة – كانت هي إصطامبول قبل مصر ، اعتمادا على رواية العياشي ، لأنه أقرب إلى التحقيق من غيره كما سلف الذكر .

في إصطامبول :

ليس غريبا أن تستهوي عاصمة الدولة العثمانية أحد أبناء سوس في القرن الحادي عشر الهجري ، الذي كانت فيه إصطامبول مركز تأثير وإشعاع سياسي وحضاري واسع ، على كافة بلاد المشرق والشمال الافريقي ، وبالنظر إلى الظروف السائدة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط ، ودور الخلافة العثمانية عصرئذ وعاصمتها (إصطامبول) في استقطاب العوامل التاريخية والسياسية الفاعلة في هذه الجهة من العالم .

ولعل شهرة وازدهار هذه المدينة عهدئذ – كقلب نابض للخلافة

الاسلامية – كان العامل القوي في إغراء فضول البحث والاستطلاع عند محمد بن سليمان الروداني ، الذي يبدو جليا أنه لايترك فرصة تواتيه إلا ويغتنمها في سبيل تحقيق هذه الرغبة الأكيدة التي لازمته منذ بداية رحلته الدراسية عبر المراحل السابقة منها حتى الآن ، مما يجعلنا نعتبر انتقاله إلى تلك العاصمة أمرا عاديا ، إذ تطالعنا في كتب التاريخ والتراجم والمصنفات ، أمثلة كثيرة لرجال العلم والثقافة أمثال ابن سليمان الروداني ، انتقلوا إلى هذه المدينة في هذه الفترة التاريخية وسواها ، سواء من الشمال الافريقي أو مصر والحجاز أو فلسطين ولبنان وبلاد الشام والعراق ...(100) ، إما رغبة شخصية منهم أو بطلب واستقدام من طرف السلاطين العثمانيين والأمراء ورجال الدولة عموما فيجدون هناك ترحابا ومجالا للمشاركة في مناصب التدريس والافتاء والوظائف الدينية ومجالس العلم والمناظرات التي يحضرها السلطان والأمراء أنفسهم .

فمن الطبيعي أن يجد ابن سليمان في نفسه انجذابا إلى تلك الديار ، التي لاريب سمع عنها من الأخبار ما يجعله يفكر في ورودها ، وهو الفقيه النبيه ، والعالم المتضلع الطموح ، مثلما سمع كثير من أمثاله المغاربة القدامى والمعاصرين عن القاهرة وبغداد وفاس والقيروان ، ودمشق والبصرة ، والقدس ومكة والمدينة ... فاستهواهم إليها مثلما استهواه اليوم ، وفي نفسه رغبة الاستطلاع والاستفادة ، مثلما دفع بهم إلى معانقة السفر ، وتحمل متاعبه من أجل اكتساب العلم والسياحة والاطلاع والاستمتاع ...

وكما سبق القول – وحسب رواية أبي سالم العياشي – فقد قصد ابن سليمان بلاد تركيا إلى عاصمتها إصطامبول ، بعد مغادرته للبلاد الافريقية عبر البحر ما بين سنة (1063 – 1064 هـ) أو ما يقاربهما ، حتى يتسنى له أن يدخل تلك البلاد ، ويمكث بها بعض الوقت ، ليرجع بعدها إلى بلاد مصر قبل سنة (1066 هـ) ، ويتمكن من الأخذ عن الأجهوري الذي توفي في هذه السنة .

وعن مقام المترجم بإصطامبول ، لم يرد من الأخبار والمعلومات ما يفيدنا بشيء جديد مما عند أبي سالم العياشي ، الذي يحدثنا عن الظروف والأحوال التي واجهت المترجم في تلك الديار ، ينقلها عن ابن سليمان حين يحكي عن نفسه أنه نزل هناك عند أحد المنتسبين للعلم ممن يدعون الصلاح – حسب عبارة المترجم – ويزعم أنه من ذرية الشيخ الامام أحمد زروق (ت 899 هـ) فوقع له مع هذا الشخص ما يغني إيراده هنا بالحرف عن تعليق أو تذييل كما تحدث به المترجم إلى صديقه

العياشي قائلا : «كنت لفرط اعتقادي في الشيخ زروق لما سمعت أنه من ذريته ، آويت إليه وأجللته ، واعتقدت فيه الخير ، وأخرج إلي رسالة في التصوف لبعض المتأخرين ، وأمرني بنظمها فنظمتها ، وكان ذلك دأبه إذا ورد عليه غريب ممن ينتحل العلم ، كلفه بنظم شيء أو تأليفه ، ثم ينتحل لنفسه ذلك ، ويباهي به الأعاجم الذين يعتقدونه ، وعندما بدا لي خبث طويته ، وظهرت لي منه مقاصد غير محمودة اعتزلت عنه ، وصادف ذلك بعض الأشهر المعظمة ، فاعتزلت في بعض الرباطات اتحنث ليالي ذوات عدد ، ولم يعرفني أحد ، ولا خرجت ولا دخل علي أحد مدة ، وخفي عليه مكاني ، وطال بحثه عني ، ولم يقف لي على خبر ، وتحير في شأنه ، لأنه – لفرط غباوته – عندما قدمت عليه ، وسرني كأني منه أوحي بالخبر إلى أم السلطان أنه قدم علينا رجل من شأنه كذا وكذا ، وبالغ في التعظيم حرصا على ترضية مهابته في قلوبهم ، بأنه ممن يقصد للزيارة من الأماكن البعيدة ، واسدرارا لصلتهم ، فطالبته بإيصالي إليها فلم يقف لي على خبر ، وسقط في يده ، فأخذ يتعلل لها ، وأنا لا أشعر بشيء من ذلك ، فلما فرغت من تحنثي ، وخرجت من خلوتي ، جئته ذات يوم لاسلم عليه ، ولا علم لي بما وقع ، فلما وقعت عينه علي ، هش وبش ورحب وقال لي : أين كنت ؟ ؟ فقلت : في بعض أطراف المدينة لأغراض ، فرمز لي بالخبر ، فأخذت اعتذر له ، فتنكر لي وقال لي : أنا مطالب بك ، وأخاف على نفسي أن لم أحضرك ، فلما علمت منه الجد ، علمت أنه لاينجيني منه إلا الكيد ، وكنت في خلال ذلك لم أظهر له التصميم على الاباية فعدلت إلى فن آخر من الكيد ، وألنت له في الكلام ، وقلت له : هذا من ظهور أثر بركتكم علي ، حيث صار مثلي ممن يطلب إلى هذه المراتب العلية ، فجزاك الله عني خيرا ، فسمعا وطاعة لأمرك ، حتى اطمأن إلى قولي ، وقلت له : إن لي بعض أمتعة في بعض الحواصل ، وأنا أريد أن أحولها إلى عندك هنا ، وآتي بكتبي ، ليطمئن قلبي ، وقال لي : هل تحتاج إلى معين ؟ فأبعث معك أحدا ؟ فقلت : لا ، وجزيته خيرا ، فخرجت من عنده ، فلم تلق عيني عينه حتى الآن»(101) .

ومما حدث له هناك أيضا أنه اجتمع بأحد علماء المدينة المتصدرين للفتوى ولعله هو الشيخ عمر بن يحيا بن عمر أفندي المنقاري (ت 1088 هـ)(102) ، في مجلس ضم جماعة من العلماء فقدمت إليه القهوة والدخان في المجلس مع الحاضرين ، فامتنع المترجم منها ومن الدخان مستنكرا ، فخاطبه المفتي متسائلا في سخرية عن سبب

رفضه للقهوة والدخان : أكان منك هذا موقف زهد صادق أم إنما هو تزهد وتظاهر للتدين بالاستنكاف ؟ ؟ فأجابه ابن سليمان بأن رفضه هو فرار من شبهة الحرام ، وليس تصنعا ولا افتعالا كما تظن ، فطال النقاش والجدل الفقهي بين المترجم والمفتي أمام الحاضرين ، ظهر فيه ابن سليمان قويا على المفتي في المحاججة والتدليل على صحة موقفه بالمنطق وأصول الفقه - كما قال - سليم الرأي قوي الحجة ، حاضر الجواب[103] فأفحمه ، وشاع في إصطامبول أن طالبا مغربيا غلب مفتي المدينة في مجلس المناظرة ، فخاف المترجم على نفسه من شر المفتي ، فاختفى عن الأنظار متسترا إلى أن غادر إصطامبول بسبب ذلك[104] .

ومما تقدم يمكن استخلاص جملة من الحقائق والأفكار ، تتصل بشخصية محمد ابن سليمان العلمية ، ونزعته الصوفية ، ونباهته ودهائه ... من خلال ما حكاه عن نفسه في إصطامبول ، مما حدث له مع مفتي المدينة ، أو الرجل المنتسب إلى الشيخ زروق ، المدعي للعلم والصلاح ، يعطينا كل ذلك تصورات عدة كنسيج متكامل لثقافته ، وتمكنه العلمي ، الذي اغترب من أجله طويلا عن الأهل والوطن مما جعل رصيده العلمي كبيرا ، بَوَّأَهُ مَكَانَةً بين معاصريه ، وهو ما يزال مرتحلا لاستفادة المزيد ، كما يتجلى مما سبق نزوعه الصوفي وتورعه كعنصر من عناصر تكوينه الثقافي العلمي المرتبط ارتباطا جدليا بالأسلوب التربوي على منهج السلف الصالح ، بجانب ما يتمتع به من نباهة ويقظة وذكاء وحيلة ، في إدراك مقاصد الأمور ، ومغازي السلوك والتعامل مع الناس ، والقدرة على التصرف الواعي في مواجهة المواقف والعوارض الطارئة ، وبالتالي مواقفه التي أبان بها عن قدرة ممتازة بالتبصر وحسن التصرف والتعقل في مداراة الناس في مختلف الظروف والمناسبات ، في انسجام تام مع معتقداته السلوكية والفكرية واختياراته المذهبية في مختلف القضايا .

فابن سليمان لم يكن ممن استهوتهم الدنيا ، وتهالكوا عليها ، بدليل رفضه تلبية دعوة أم السلطان العثماني ، التي رغبت في التعرف عليه ، مع العلم أن استجابته لدعوتها فرصة كبرى ، سَتُيَسِّرُ له أسباب الحظوة والجاه والمال ، ورفعة القدر والمكانة الاجتماعية ، هناك بين رجال العلم في القصر السلطاني وتفتح له أبواب الدنيا العريضة وزينتها ، لكنه رَفَضَ أن يلج هذا الدرب ، فأعمل الحيلة والتخلص من تبعات كل ذلك ، على عكس بعض قرنائه وزملائه في الأخذ والطلب عند الشيخ سعيد قدورة المتقدم الذكر ، مثل يحيا ابن محمد الشاوي الملياني ، الذي دخل

إلى إصطامبول في نفس الفترة التي دخلها ابن سليمان ، فشارك (على عكس ابن سليمان) في مجالس المفتي ، وحصل فيه على مكانة عالية ، وأسند إليه منصب التدريس في دار الخلافة(105) .

فقد كان بإمكان المترجم أن يقبل العرض بفرح كبير وتلهف زائد ، فيغتنم الفرصة ويداهن وينافق ، ويتنازل عن بعض ما يسوغ لأمثاله التنازل عنه رغبا ورهبا ، ليحقق ما يريد ، لو أنه كان يسعى إلى تحقيق زينة الحياة الدنيا .

وفي وسعه كذلك أن يصارع صاحبه الملحاح لتلبية تلك الدعوة بالرفض التام ، لكنه لم يفعل ، لأن الموقف يستدعي النظر البصير بالعواقب ، والتزام عدم المجاهرة بحقيقة نفسه ، وهو المغترب الذي لاسند له ، ولا ركن يدعمه في بلاد الغربة الشرسة ، إذ ليس مستبعدا أن يناله بسبب هذا الرفض سوء من أم السلطان ، لو أنها علمت بموقف المترجم من دعوتها ، وهي من هي في نفوذ الكلمة في القصر وسيدته ، والمتصرفة في أمور الدولة الخطيرة ، واللعب برجال الحكم والسياسة على هواها(106) ، فكيف بطالب مسافر طاريء ، مطلوب من سيدة القصر ثم لم يستجب دعوتها ؟ !

ومن الأكيد أن ابن سليمان مدرك لذلك ، وإن لامنجاة له منه إلا التلطف والحيلة والتدبير من أجل السلامة بالعقيدة والبدن ، فهو إذن حكيم أمره ، متعقل في تصرفه وتدبيره ، واقعي في تفكيره وسلوكه .

وكذلك الشأن بالنسبة إلى ما كان له مع المفتي بعد افتضاح هذا الأخير وهو في منصب الفتوى ، والمؤيد بسلطة السلطان العثماني ، ودونه سائر الهيئات الدينية والقضائية ، في كافة بلاد السلطة العثمانية(107) ، مما لاينفي احتمال تعرض المترجم للمتاعب والأخطار ، بعدما غلب المفتي في المناظرة وليس أمامه إلا الفرار والنجاة بنفسه بعيدا عما يتوقعه منه ، تحوطا لدينه واستقامة سلوكه(108) ، مؤكدا حرصه على اقتران القول بالعمل في دينه ودنياه وَفِي مَا لاَ مَجَالَ فيه للمصانعة والكذب على الله والناس ، لأن الأمر أمر صلاح النفس وسلامة الدين وحفظ البدن والعقيدة من فتنة الدنيا وغواياتها .

ولست بهذه الملامح بصدد الدفاع عن الرجل وتبرير مواقفه في إصطامبول ، بقدر ما أسعى إلى تلمس ظلال شخصيته ، ومنهج تفكيره وسلوكه ، كمثقف عصره وطالب علم دينه ، واثق بنفسه إيمانه بالله ، معتز بسلوكه ، ثابت على ما يعتقده صوابا ، ويؤمن به صلاحا ، لم تجتذبه مباهج الحياة ولا لذاتها ، ولا استرقته الفرص

التي تتيح له بالتأكيد تحقيق أغراض النفس وشهوات الحياة ، لو أنه كان يستهدف من معاناة الغربة والأسفار الحصول على ذلك .

فالقصد إذن ، هو استبانة ملامح شخصية محمد بن سليمان العلمية والفكرية والسلوكية ، في هذه المرحلة من رحلته الدراسية في اتجاه الشرق ، وهي مرحلة من مراحل تكوينه العلمي ونضجه الفكري ، كمثال لكثير من رجال العلم الأتقياء ، الذين يربأون بأنفسهم وعلمهم عن السقوط في متاهة حب الشهوة والدنيا ، والنعمة والجاه ، في كنف سلطة المادة ونفوذ الكلمة مُؤْثِرِينَ سلامة الدين والقلب والنفس ، وصفاء العقيدة والفكر ، وبراءة العلم وقداسته على غيرها .

إلى بلاد مصر :

بعد المناظرة التي وقعت بين مفتي إصطامبول وبين ابن سليمان في موضوع الدخان والقهوة كما سلف القول ، لانعرف بالتحديد المدة الزمنية التي بقيها المترجم هناك ، قبل الخروج خائفا على نفسه في اتجاه مصر ، إلا أن منطق التاريخ وقرائنه تشير إلى أن مكوثه بإصطامبول لم يدم طويلا من يوم دخولها إلى يوم الخروج منها .

فدخول المترجم إلى مصر لن يتأخر بالتأكيد إلى ما بعد سنة (1066 هـ) ، وهي السنة التي توفي فيها أحد شيوخه الكبار بمصر ، ممن لازمهم وأخذ عنهم رواية الحديث ، وهو الشيخ أبو الحسن علي الأجهوري[109] ، ولذا فيكون وصوله إلى بلاد مصر قبل وفاة الأجهوري بفترة .

ودخول ابن سليمان إلى بلاد مصر والأزهر الشريف ، وملاقاة الشيوخ هناك ، وحضور حلقات التدريس بين أعمدته ... ليس حدثا فريدا ، ولا بدعة جديدة في التاريخ ، فهو استمرار لحركة تاريخية قديمة ، وتقليد علمي مغربي ، نشأت أصوله التاريخية مع انتشار الاسلام في شمال إفريقيا ، حين بدأ المغاربة يرحلون نحو الشرق الاسلامي ، إلى زيارة البيت الحرام وأداء فريضة الحج ، وطلب العلم الشريف والحصول على أسانيده وروايته ، بجانب الاستطلاع والسياحة ، باعتبار بلاد الحجاز مهبط الوحي وقبلة المسلمين ، وديار الاسلام الأولى ، ومستراد رسوله الأعظم ...

ومن ثم تبلورت الرحلة المغربية نحو الشرق بدافع جملة من الأهداف والغايات الدينية والدنيوية ، منها ما له صلة بالدين ، ومنها ما هو ثقافي ، أو تجاري ، أو ديبلوماسي ، أو تجسسي استطلاعي ، مع قيام دولة العباسيين بالمشرق ، واستقلال شمال إفريقية والأندلس عنها ، في ظل دول وإمارات مذهبية متعددة .

ومنذ تلك الحقبة ، بدأت تظهر أسماء مغربية في كتب التاريخ ، رحل أصحابها إلى تلك الديار ، واطرد استمرار ورود ذكر المغاربة في كتب التاريخ كلما تقدم الزمن وتوالت العصور ، والمغاربة يزدادون شغفا بالرحلة نحو المشرق : إلى بلاد العراق وفارس والشام والحجاز عبر مصر ، من إفريقيا والمغرب الأدنى والأقصى والأندلس والسوس الأقصى والسودان ...(110).

وكانت بلاد الرافدين القنطرة البرية التاريخية التي عبرت منها قوافل الرحالة المغاربة نحو القارة الأسيوية منذ الفتح الاسلامي ، وأصبحت مدينة الاسكندرية والقاهرة وبلاد الصعيد منازل قوافل الحجاج المغاربة والمسافرين والطلبة والتجار والسياح من شمال إفريقيا كلها .

ولذلك نجد أُسَرًا مغربية عديدة نزلت بأرض مصر خاصة ، منذ فترات متقادمة وشاركت في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية منذ العهد الفاطمي ، وتحدثت كتب التاريخ عن وجود أحياء خاصة بالمغاربة والأندلسيين ،(111) ومصامدة سوس المغرب الأقصى(112) ، والدور الذي قامت به هذه الأسر المغربية في تمويل (رواق المغاربة) بالأزهر الشريف ، لصالح الطلبة الغرباء(113) .

كما نقرأ أسماء مغربية أخرى في مصادر التاريخ بالشرق الاسلامي ، نزلت في الحجاز والقدس وطرابلس الشرق ، ودمشق وبَغْدَادَ ، وصفد والخليل ... أسسوا هناك عائلات ، احتفظت بأنسابها المغربية ، مثل : الغماري الصنهاجي ، والسجلماسي والدكالي والسوسي ، والجزولي والمصمودي ، والوداني والفاسي والتازي والتادلي والسلاوي والفيلالي والمريني ، والمغراوي والمكناسي والمراكشي والصحراوي ... مما يكشف عن الأثر الذي خلفته ظاهرة الرحلة المغربية إلى الشرق ، في تواصل فكري وحضاري واجتماعي عبر العصور .

وفي هذا السياق كانت مدينة الاسكندرية على الخصوص من أقدم المدن المصرية التي عرفت من المغاربة إقبالا مستمرا والنزول بها ، سواء عن طريق البر أو البحر نظرا لموقعها الجغرافي في الطريق إلى الشرق ، ولأنها كانت مركزا قديما للمذهب المالكي منذ انتشر الاسلام في إفريقيا والمغرب والأندلس ، فحج إليها العلماء والطلبة والحجاج المغاربة ، للاقامة أو الراحة من متاعب السفر ، وإما للاتصال بمن بها من علماء وفقهاء المالكيين(114) .

ولم تكن رحلة ابن سليمان في هذا السياق إلا كنقطة ماء في عباب أمواج متتالية في نهر حضاري مُسْتَمِرٍّ من المغرب الاسلامي إلى مشرقه كفرد من آلاف الأفراد الذين سبقوه في التاريخ في موكب الراحلين المغاربة ، سواء منهم الذين دونوا رحلاتهم أم لم يدنوها ، وسواء كان مذكورا أم مغفلا ، معلوما أو مجهولا ... ساهم الجميع – بفضل جهود مستمرة مخلصة – في نقل الفكر والثقافة والعلوم والفنون الاسلامية والعربية إلى المغرب على امتداد التاريخ .

ولئن كانت تلمذة الغرب الاسلامي لشرقه واقعا تاريخيا محققا ، فليس من الانصاف أيضا – بالرغم مِمَّا في هذا الموضوع من جدال ونقاش – أنْ يتجاهل منصف أهمية العطاء المغربي في هذا الاطار ، والمتمثل في إسهامات المغاربة المستقرين بالمشرق وغير المستقرين على أكثر من صعيد ، وما قدموه هناك من إبداع أغنوا به هذا التواصل التاريخي الحضاري ، وأثروا به عناصر الشخصية المغربية المؤثرة في الفكر والحضارة الاسلامية في الشرق الاسلامي ، بما ألَّفوه من كتب ومصنفات ، وتركوه من آراء واجتهادات ، تشهد على مدى التفاعل الحاصل بين الجناحين من تكامل وتفاعل أصيل .

نسوق هذا الحديث للتذكير والذكرى ، ونحن نتحدث عن رحلة محمد بن سليمان الروداني في إطارها الديني والحَضاري العام ، حتى لا يعزب عن أجيال اليوم أن الرجل ومن سبقه من المغاربة في هذا السبيل ، كانوا أول من استجاب دعوة القرآن إلى التواصل والتعارف بين أبناء البشر ، وشرعوا في تطبيق هذا المبدأ الاسلامي منذ اطمأنت قلوبهم إلى الاسلام ، فاسترخصوا من أجل تحقيقه كل غال ونفيس ، واستهونوا كل صعب ، بعزم المؤمن الصادق بإيمانه القوي يحذوهم الاعتقاد الراسخ بأن ذلك من تمام الدين ، وخلوص العقيدة ابتغاء مرضاة الله والأجر والثواب .

وخلاصة القول دخل ابن سليمان إلى مصر ليتنقل في ربوعها كما سبق القول ، ليأخذ العلم عمن وجدهم من الشيوخ ، ويستجيزهم ... والجدير بالاشارة أن من ترجموا له لم يذكروا لنا شيئا عن تنقلاته في بلاد مصر ، باستثناء العياشي الذي ذكر عدة أماكن تمت إليها ، قبل جوازه إلى الحجاز ، غير أن ما ذكره أبو سالم العياشي ، لم يرد ضمنه ذكر للأزهر بين تلك الأماكن التي لقي فيها الشيوخ الذين اتفق جميع من ترجم لابن سليمان على تحقيق اتصاله بهم ، وجميع هؤلاء الشيوخ كانوا في الأزهر ، مما يؤكد دخول المترجم إلى الأزهر واستفادته من شيوخه ، ولو

لم يرد ذكر ذلك عند من ترجموا له ، وأن لا تفسير لهذا الاغفال سوى أنه مظهر من مظاهر عدم الضبط والتحري في تدوين أخبار الرجل وتفاصيل تنقله في رحلته الطويلة ، والاكتفاء باعتماد الاختصار والعمومية .

واتصال المترجم بشيوخ الأزهر شيء محقق ، وشهرة الأزهر بالعلم والدراسة في مصر لقرون عديدة ، لايتصور معه تقاعس ابن سليمان عن وروده ، وهو قد زار مراكز هي أقل منه نشاطا وعلما وعمارة ... وهو الرجل الحريص على زيارة المدارس والمراكز العلمية ، والاستفادة منها ، فما بالك بالأزهر الشريف ! ! ملتقى رجال العلم والتدريس والتأليف ، وكعبة الطلبة من كافة أرجاء العالم الاسلامي ، والمسجد الذي لايفرغ من حلقات الدرس في هذا العهد بالليل والنهار[115]وهو كما يصفه أبو مليح في رحلته إذ يقول : « ... لايُغْلَقُ له باب ، ولا يسند له حجاب ، أوقاته معمورة ، وبأنواع العلوم مغمورة ، قراءة وتقريرا لتفسير وحديث ، ونحو وبيان وأصول، فقه ودين وتصوف ، ينبع العلم من حيطانه ، ويُسلِّي الغريب عن أوطانه ، لاتجد سارية من سواريه خالية من معلم مفيد ، أو متعلم مستفيد ، تجتني من رياضه أزهار الكلام ، وتسمع في أرجائه أصارير الأقلام ، وفيه خمسة رواقات للغرباء من حملة القرآن ، ومن يتعاطى العلم من أهل المشارق والمغارب ، تجري لهم الأقوات في جميع الأوقات ، من رغيف نظيف ، وحسو جريش ، وعدس نضيج ، صباحا ومساء ...»[115 مكرر] وقد كان الأزهر في الفترة التي دخل فيها ابن سليمان إلى مصر يلازم فيه مجموعة من الطلبة المغاربيين أمثال : محمد بن عبد الكريم الفكون الجزائري[116] ، ويحيا الشاوي الملياني[117] ، وعيسى الثعالبي الجزائري[118] ، وإبراهيم بن حسن الكوراني المتوفى سنة (1101 هـ)[119] ...

وفي الأزهر اتصل ابن سليمان بأكابر الشيوخ ، وأخذ عنهم واستجازهم في الحديث والفقه والقرآن والطب والتصوف والعربية ... أمثال الشيخ محمد بن عمر الشوبري[120] وشهاب الدين الخفاجي[121] ، وشهاب الدين أحمد ابن أحمد القليوبي[122] ، والشيخ سلطان[123] والشيخ محمد بن علاء الدين البابلي[124] ، وبرهان الدين الميموني[125] ، والشيخ أحمد العجمي[126] ، والأجهوري[127] — وغيرهم ممن ورد التنصيص على ذكر أسمائهم ، وكلهم تصدروا للتدريس بالأزهر الشريف ، وتخرج عليهم من الطلبة ما لا يحصى عدده .

لم يصلنا من أخبار المترجم وأحواله ونشاطه الدراسي والعلمي ، سوى ما كان

بينه وبين شيخه الأجهوري حول مسألة لباس الصوف المنسوج في بلاد الروم ، هل هو طاهر وتجوز الصلاة به أم لا .

فالمترجم يرى بطلان الصلاة به ، ويحرم لبسه لأنه نجس بعلة نتفه من أصله قبل تصنيعه ، والأجهوري يرد عليه باحتمال الوجهين ، فراجعه المترجم بحجج عقلية ينفي بها أوجه الاحتمالين ، منتقصا من قدر شيخه(127 م) ، وتدخل في المسألة أبو سالم العياشي بعد اطلاعه على ما بينهما ، فتناول الموضوع ، وقال بنفس ما قال به الشيخ الأجهوري ، وعلق على موقف الروداني بقوله : « ... ومثل هذه التدقيقات بالاحتمالات العقلية تنبو عنها الفروع الفقهية المبنية على الظن القريب من القطع ...»(128).

وقد وقعت هذه المراجعات بين ابن سليمان وشيخه الأجهوري ، حينما كان الأول في الصعيد ، قبل أن ينتقل إلى مدينة (جرجا) ، آخر محطة من تنقلاته في مصر ، ويمكث بها مدة ليجتاز البحر الأحمر إلى الحجاز .

في بلاد الحجاز :

دخل المترجم إلى بلاد الحجاز في موسم الحج خلال سنوات ما بين (1068 – 1070 هـ) ، وأدى الفريضة ، وانتقل إلى المدينة ، ونزل برباط هناك يجاور الحرم الشريف ، يقال له : حرم السلطان ، وانقطع فيه للتدريس والبحث والتأليف(129) .

وفي سنة (1073 هـ) نزل أبو سالم العياشي بالمدينة المنورة بنية الجوار ، بعد أداء مناسك الحج ، واتصل بابن سليمان وتعرف عليه ، ولم يكن يعرفه شخصيا من قبل(130) ، فوقف المترجم معه حتى حصل على بيت جوار المسجد الحرام ، وقام إزاءه بواجب الاستقبال والترحيب ، والقيام بإعداد المسكن ومباشرة تنظيفه وترتيبه بيده ، فخاطبه العياشي بقوله :

بطيبة قد خيمت بعد تعسف	وزرت شفيع الخلق في كل موقف
وصححت عزمي في الجوار بأرضه	وكان نزولي عند أفضل منصف
أخي وخليلي ، بل إمامي وسيدي	وجامع كل الفضل دون تخلف
ولما نزلنا أحسن النزل واللقا	وقام مقام الخادم المتلطف
وليس بعيب خدمة المرء ضيفه	ولكنها زيادة في التشرف
وبالغ في إكرامنا واحتفى بنا	ودام على حسن اللقا والتألف

وأخجلني إحسانه ، فَهَمَمْتُ أن أخفف عنه رغبة في التعطف
وقال لي الظن الجميل به : فما عليك ، فلا تخجل ، فلست بمسرف
ولا كلفة في ما فعلت ، فإنما علامة صدق الود ترك التكلف
وقد كنت أرجو أن أفوز بوصله وكنت له قدما كثير التشوف
وإذ نلته بالحزم ألا أضيفه وأطلب ما يقيه دون تسرف
جزاه اله العرش عني فإنني لما نالني من خيره ذو تعرف
أقول له والقلب يغبط حاله هنيئا لك البشرى بما نلت ، بآعرف
منحت جوار المصطفى فاغتبط به ينلك غنى الدارين حسبك فاكتف
هو الحر جودا غير أن شمائلا له عذبت حتى حلا ذكره بفي
عليه صلاة الله ثم سلامه ينيلان أمنا في مكان التخوف(131)

ولما نزل العياشي بالمدينة ، واتصل بالمترجم كما أشرنا ، تمكنت المودة والصداقة بينهما ، مما مكن العياشي من التعرف على مواقف الرجل وآرائه وتلك الظروف التي يعيشها بسبب هذه الآراء والمواقف ، التي واجهها بسلوكه الشخصي ، ملتزما بالانعزال عن الناس ومخالطتهم ، اتقاء لنفسه مما تفشى في الناس والمجتمع هناك من أمور ينكرها عليهم ، ولم يقصر في انتقاد فساد النيات وشيوع البدع والمحرمات ، فتعرض بسبب ذلك لأقاويل الحساد والمتحاملين حتى من بعض رجال العلم والدين ، فشنعوا عليه بالمقابل انزواءه عن مخالطة الناس وتشدده في مواخذتهم ، والنهي عن لبس الحرير وشرب الدخان المتفشي بين العلماء والطلبة فضلا عن العامة ، وجر عليه ذلك مضايقات عانى منها محنة ، تمسك بالرغم منها بمواقفه(132) ، والتزم حدود الشرع في نقده للناس والمجتمع والدعوة إلى الصلاح والاصلاح...

ونالته من جراء ذلك الأقاويل والدعايات والافتراءات الكاذبة الحاسدة بالطعن في شخصه ، والتشكيك في نواياه ومقاصد دعوته ، وألبوا عليه العامة والخاصة .

وعندما يراجعه صديقه أبو سالم العياشي في ذلك ، يجيبه قائلا : «كيف أجلس إلى قوم أعلم حالهم ، وحال مكاسبهم من أكل المكوس ، وتعاطيهم للعقود المحرمة شرعا ، مع العلم بذلك ، ؟ ! فإن نهيتهم وزجرتهم ، وقعت معهم في أشد ما وقعوا فيه ، وإن سكت عنهم ، وباسطهم وألنت لهم القول كنت معينا لهم ، ممالئا لهم على ما هم فيه ، وتركت الواجب علي من هجرانهم بلا عذر»(133) .

ولئن كان موقف الرجل مما يراه من تجاوزات لمقتضى الشريعة في مجتمع المدينة

هو السبب فيما يلاقي من المضايقات ، حتى ممن ينتسبون إلى حماية الأخلاق والدفاع عن الدين وتطبيق تعاليمه في السلوك والمعاملات ... فقد تسبب له كذلك إشعاعه العلمي واستقامته في هذه المتاعب ، من حساده الذين لا يروقهم وجوده الشخصي بينهم ، بدافع الغيرة والحسد مما أوتي من تفوق علمي وتنوع مجالاته ، وقدرته على صياغة آرائه والدفاع عنها ، أكسبه ذلك شفوفا ملحوظا بين أنداده وأمثاله ، وهذا ما أدركه العياشي حين يقارن بينه وبين عيسى السكتاني ، الذي ساير عصره رغم ما ساد في زمانه من فوضى سياسية ، وفساد وانحلال ، على عكس ما عليه ابن سليمان المنقبض عن الناس وتقريعهم وانتقاد ما هم عليه ، وكلا الرجلين عالم بما أنيط به من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، غير أن ابن سليمان تجاهل كل شيء في سبيل الصدع بالحق والجهر به .

ولم يكتف العياشي بهذه المقارنة ، بل تمنى بصيغة التأسف ، لو أن صديقه الروداني لم يسلك السبيل الذي سلك «لأن اعتزال الخلق في هذه الأزمنة ، وعدم الاختلاط بهم ، والتجهم لهم ، وحجبهم عن الاستيذان ، مع معرفتهم له واستشعارهم بخصوصيته ، مما يزيدهم به إغراء ، وله مطالبة ، فيشار إليه بالأصابع ويحمل من يرى في نفسه أنه مشارك له في علمه وخصوصيته ، على التطلع لعوراته ، والتتبع لزلاته ، والقعود له بالمراصد ، ليسقط منزلته من قلوب الخلق ، فينصب نفسه غرضا لسهام ألسنتهم ، فيتضرر بذلك في دينه ودنياه ، إن كان ممن يكثر تألمه بما يبلغه عنهم ... وإما من كان مشهورا بينهم ، موسوما بخصوصية تستشرف النفوس إلى لقائه ومخاطبته ، فلا ينبغي له أن يحتجب عنهم ، ويظهر الانزواء عنهم ، والتكره للقائهم ، سيما إن كان يصرح بذمهم ، ويعيب ما هم عليه فإن ذلك وإن كان حقا في نفسه ، إلا أنه عرض به نفسه لآفات كثيرة ، كان في غنى عنها»(134) .

فابن سليمان حينما واجه سلبيات عصره ، وانتقد مجتمعه بالأسلوب الذي يراه ، ومن موقعه كداعية سلفي مصلح ، كان يواجه متغيرات التحول الحضاري الشامل ، الذي يشهده الشرق الاسلامي آنذاك ، وما رافدها من مؤثرات النهضة الأوربية ، في مقابل التقهقر المستمر للعالم الاسلامي في ظل العثمانيين ، سواء في السياسة والأخلاق والعادات والاقتصاد والمعاملات ... وهو تيار لا ينبغي النظر إليه في مظهره على أنه مجرد الصراع بين الحلال والحرام فحسب ، بل إنما هو مد تغييري عاش ابن سليمان بوادره الأولى وتجليه في حياة الناس مما يعبر عنه بفساد

النيات وكثرة المناكر ، وهذا ما جعل صديقه العياشي يصفه بأنه «غير عارف بزمانه»[135] .

إلا أننا في هذا السياق ، لا نسعى إلى مناقشة هذا الموضوع وفي هذا الاطار بما تستلزمه الاحاطة والشمول في البحث والاستنتاج ، إلا بقدر ما يعرفنا بشخصية محمد ابن سليمان وجوانبها المختلفة ، ورسم ظلال خافتة لحياته ، وخطوط عريضة لرحلته المجهولة ، وإلا فهناك مجال واسع للجواب على أسئلة كثيرة مطروحة حول الرجل تنتظر البحث والمناقشة ، حول مواقفه وآرائه واختراعاته ، كفقيه مصلح ، ومحدث واع ، ورياضي مبدع ، ومفكر مخترع .

في مكة :

وخلال المدة التي قضاها المترجم في المدينة ، ظل هدف الحملات التي يقوم بها خصومه هناك ، وتكاثرت عليه الأقاويل بحق أو بغير حق ، بسبب المواقف والآراء التي أشرنا إليها ، وازداد الحاقدون عليه ، «وكثرت القالة في شأنه ، وأدى ذلك به إلى الخروج من المدينة إلى مكة»[136] حيث وجد الاقبال والقبول ، وتصدر للتدريس بها ، وقصده الطلبة من الحجاز والشام ومصر وشمال افريقيا ، واشتهر أمره ، ونال حظوة كبيرة ، بتولي منصب الامامة والفتوى بالحرم المكي[137] ، وحصلت له هيبة في قلوب الناس[138] وكان ممن شاركه القيام بنشر العلم بمكة أبو مهدي عيسى الثعالبي[139] والقاضي مصطفى البابي[140] .

وفي مكة تفرغ المترجم للبحث والتأليف مدة إقامته بها قبل أن ينتقل إلى مدينة (اصطامبول) سنة (1081 هـ) ، برفقة مصطفى بك ، شقيق وزيرها الفاضل الذي يبدو أنه استقدم المترجم إليه بعدما اشتهر أمره بمكة[141] ، مما يؤكد اشتهار ذكره وفضله ، لمكانته العلمية ونشاطه الدراسي والبحث والتأليف ... ووصلت أخبار نباهته ونبوغه إلى هذا الوزير ، فرغب في التعرف عليه ، والاستفادة من علمه ، خاصة وأنه اشتهر أساسا في الرياضيات والفلك[142] ، وقد يكون استقدام الوزير له للاستفادة من علمه في هذا المجال هو السبب في تعظيمه وتكريمه .

وفي طريقه إلى اصطامبول استجابة لدعوة الوزير المذكور ، اتصل بالشيخ خير الدين الرملي[143] ، وحضر بعض دروسه ببلدته (الرملة)[144] ، وذلك قبل وفاته بقليل ، وأخذ بدمشق على يد عالمها الشيخ محمد بن حمزة الحسني[145] ، والشيخ محمد بن بدر الدين بن بلبان[146] واستقر به المقام في اصطامبول سنة كاملة ،

ليرجع بعدها إلى مكة مجللا محترما ، رفيع القدر والمكانة ، وازدادت شهرته بها أكثر ، «وحصلت له الرياسة العظيمة التي لم يعهد مثلها ، وفوض إليه النظر في أمور الحرمين ، حتى صار شريف مكة لا يصدر إلا عن رأيه ، وأنيطت به الأمور العامة والخاصة»(147) ، وظل على ذلك مدة إلى أن مات الوزير السالف الذكر ، ووجد عليه الوشاة والحساد سبيل الايقاع به ، وأغاروا صدر شريف مكة عليه ، وعملوا على تشويه سمعته ، والتنقيص من مكانته ، وتخويف شريف مكة منه لما له من حظوة عنده ، وسايرهم في التخلي عنه وتصديق الأكاذيب ضده ، فرفع أمره إلى السلطان العثماني بدعوى تأليب العامة والخاصة ، بما يجاهر به من تنكير وانتقاد الأحوال لتغيير المنكرات والفساد ...

وفي سنة (1093 هـ) أمر السلطان بإخراجه من مكة ، وتحامل عليه (شريف بركات) أمير مكة ، واستعجله في الخروج من مكة ، في يوم عيد الفطر امتثالا لأوامر السلطان ، فامتنع المترجم من الخروج في هذه الحالة وفي هذا اليوم ، معتذرا بالخوف من قطاع الطرق ، وتجلد في تحمل مضايقات هذا الأمير وقاضيه إلى أن تدخل بعض أشراف مكة عند الأمير لامهاله إلى موسم الحج ، فتوجه بعده إلى الشام وحده ، تاركا أهله بمكة ، ونزل بدمشق غير متأسف ، واستأنف هناك نشاطه العادي تأليفا وتدريسا ، واعتزل الناس منهمكا في تصنيف كتابه (الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ) ، واستوعب فيه كتب الحديث ، وسيأتي بيان ذلك حين الحديث عن مؤلفاته .

ورغم الظروف الصعبة التي يجتازها المترجم في دمشق ، وبعد ما تم لحساده ما يتوخونه من إخراجه من مكة ، لم ينقطع عن التدريس والتأليف ، فانتفع به عديد من الطلبة ، ممن تتردد أسماؤهم في كتب الفهارس والطبقات ، سواء في المغرب أو في المشرق ، إلى أن اختاره الله إلى جواره يوم الأحد عاشر ذي القعدة ، عام 1094 هـ ، الموافق 31 أكتوبر سنة 1683 م(148) ، غير آسف على ما أصابه من مكاره الدنيا ، في سبيل الدعوة إلى الله والتمسك بشريعة الاسلام في حياة المسلمين الدينية والدنيوية ، ورثاه بعض تلاميذه بقصيدة طويلة لم يثبت محمد المحبي – وهو تلميذ أحد تلاميذ المترجم – إلا هذه الأبيات :

صبرا ، فكـل الأنـام يفقـد   لا أحـد هـا هنـا يخلـد

إلى أن قال :

والنـاس آجـالهم كخيـل   فالسابـق المضمـر المجرد

وعـالم الكـون في فنـاء	فحقق الأمر فيه واشهد
والخطب عـم الأنـام طـرا	بموت شيخ العلوم أوحد
ابـن سليمـان مـن حبـاه	المصطفـى بـاسمه محمـد
تبكـي علـوم الالي عليـه	وطرسهـا قـد غـدا مسود
في كفـه دائمـا يـراع	لـه وجـوه الطـروس سجـد
إن هـزه فـالصواب يبـدو	مـن أمـره واضحـا مؤكـد
في كل علـم تـراه فـردا	أدرك آحـاده وجـد د[149]

مؤلفاته :

ألف ابن سليمان عدة مؤلفات قيمة ، تترجم مدى تعدد اهتماماته وتنوع روافد ثقافته ، واتساع أفقه المعرفي ، نالت إعجاب كل من تناولوا حياته وشخصيته العلمية من قريب أو بعيد ، ويتجلى التقدير الذي حظي به من الجميع في التحليات التي حلوه بها ، والألقاب التي وسموه بها ، في سياق الحديث عن ثقافته ومعارفه المتنوعة ، كما تلخص مجالات نبوغه العلمي ، الذي بوأه مكانة مرموقة في عصره ، والاعتراف برسوخه العلمي في مختلف الفنون ، فهو حكيم الاسلام ، واحد العلماء الاعلام[150] ، وفرد الدنيا في العلوم كلها[151] وأعجوبة الدهر ونخبة العصر في الفطنة والذكاء[152] ، ومن أقطاب الدنيا السبعة[153] ، ونادرة العصر[154] ، الشيخ الامام[155] ، والمحدث المتفنن[156] ، ومن أكابر العارفين[157] حكيم الدنيا[158] ومحقق الغرب والشرق بلا منازع[159] ، ومن أولياء الله زهدا وانقطاعا[160] .

ولا عجب أن يصدر في حقه هذا الثناء العطر من معاصريه أو من غيرهم ، من خلال آثاره التي ظلت ممثلة لوجوده العلمي على امتداد الأجيال اللاحقة ، والأوصاف التي قيلت في حقه كلها تلخص مضامين فكره وثقافته التي أودعها مؤلفاته ، والتي تترجم بحق هذه الألقاب والأوصاف محتويات كتبه .

ومما يزيد المرء يقينا بصدق ما ورد في حق الرجل ، أن الشهرة التي خلفها من بعده ، لم تأت نتيجة تناول شخصية الرجل ومؤلفاته في أبحاث ودراسات مكثفة ، وإنما جاء ذلك نتيجة تداول آثاره – وفي إطار محدود – بين العلماء والباحثين المهتمين أزيد من أربعة قرون خلت ، وظلت عِلْقاً من الأعلاق النفيسة داخل رفوف المكتبات الخاصة والعامة ، إذ برغم محدودية انتشار مؤلفات الرجل كان لها ذكر واسع بين الباحثين المتخصصين ، والعلماء المفكرين ، كما تناقلوا أخباره واثاره ، لما تتسم به من عمق وشمولية واطلاع ، وتنم عن إشراق في الفكر سابق

لأوانه ، خاصة في مجال علوم الهيئة والرياضيات ، التي كان له فيها فضل الابداع ، مما لا يقل أهمية عن اكتشافات معاصريه الغربيين ، مثل (باسكال : 1623 – 1662 م)[161] .

صلة الخلف بموصول السلف :

هذا الكتاب من أبرز مؤلفات ابن سليمان الروداني وأهمها في بابه ، وأكثرها انتشارا وشهرة ، دون فيه أسانيد شيوخه في مختلف العلوم والفنون ، انتهج فيه منهجا علميا دقيقا على سنن منهج كبار المحدثين[162] أجاز به عديدا من تلاميذه المغاربة والمشارقة ، ورواه عنه عديد منهم بسنده أو بواسطة ، ويعتبر هذا الكتاب عنوانا معبرا بصدق عن شمولية ثقافة الرجل واطلاعه الواسع في مجال العلوم الاسلامية والعربية والعلوم العقلية الأخرى ، لما يشمله ضمن أسانيده من مئات المؤلفات المختلفة الموضوعات والفنون والعلوم ، مع أسانيدها في مختلف العصور .

وقد استطاع ابن سليمان أن يجعل مضمون كتابه هذا مطابقا لعنوانه ، حيث تمكن من ايصال عدد كبير من المؤلفات بذكرها والأخبار عنها ، وإرجاعها إلى مؤلفيها ، مع ما في ذلك من الاحالة عليها والاشارة إلى موضوعها ...

استطاع بالفعل أن يوصل معارف عصره من سلف إلى خلف الأجيال على صعيد العالم الاسلامي ، في سائر العلوم والفنون المعروفة في عصره وقبل عصره ، من علوم القرآن والحديث واللغة والأمثال والأدب ، والتراجم والتاريخ ، والفقه والكلام والمنطق والأصول ، والرياضيات والفلك والتوقيت ، والطب والقرآن والمذاهب والنحو ، وأصول الدين والتصوف والسير والأخبار والطرائف .

وفي هذا الكتاب جمع ابن سليمان كافة مروياته الواسعة اتساع الرقعة الجغرافية التي قطعها طولا وعرضا ، ومن الغرب الاسلامي إلى شرقه ، وسلكها راحلا من أجل تحصيل العلم عن كل شيخ يسمع به هنا أو هناك .

ومن نسخ الكتاب الموجودة – كما يقول الدكتور محمد حجي الذي حقق هذا الكتاب –[163] ، نسخة عتيقة ، انتسخت من نسخة المؤلف ، توجد بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم(12825 ك) ، ونسخة أخرى بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد (25 ج) مكتوبة بخط شرقي سنة (1097 هـ) الموافق ل (1686 م) ، وبعد وفاة المؤلف بثلاث سنوات ، وعلى هامشها تعاليق بخط الوزير محمد الحجوي – صاحب الفكر السامي – الذي يقول بأن ناسخ هذه النسخة المسمى أبا بكر ابن

محمد ، هو ابن المؤلف ، بينما محمد حجي يشك في ما ذهب إليه الحجوي لأن كتب التراجم التي ترجمت لابن سليمان ، لم تذكر من ولد ابن سليمان من هو بهذا الاسم[164] . كما توجد نسخة أخرى بمكتبة الأوقاف العراقية ، مسجلة تحت رقم (6275) ، ولها نظير مصور بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (385) ، وفي الخزانة الملكية نسخة أخرى تحت رقم (11033) ، وهي بخط أحد تلاميذ المؤلف ، استنسخها من نسخة المؤلف سنة (1175 هـ) ، كما توجد نسخ أخرى في تونس وباريس ومصر ومكة وتركيا[165] .

كما ذكر صاحب فهرس الفهارس ، أن هناك ملخصا لكتاب الصلة وضعه بقصد تلخيص عبارته من غير إخلال بمسهبها[166] ، وعبر عن إعجابه بكتاب الصلة قائلا : « ... نادرة في بابها جودة واختيارا وترتيبا ، ليس في فهارس هذا القرن (ق 11) بالمشرق والمغرب ما يشابهها أو يقاربها ، وبالجملة فنفسه فيها نفس المتقدمين ، وسلك فيها سبيل الأطناب ، وأتى فيها بالعجب العجاب ، ومعتمده فيها غالب أسانيد الشمس ابن طولون محدث الشام[167] ، ابتدأها بأسانيده العمومية إلى كبار المسندين ، كابن حجر ، ثم بحديث الأولية ، ثم بأسانيد الكتب العشرة ، ثم بأسانيد المصنفات مرتبة على حروف المعجم ، ثم ختمها بأسانيده للفقه على المذاهب الأربعة وبقية العلوم ، وختم بأسانيد القوم ، وتسمية بعض من لقي منهم ، ورأى من عجائبهم»[168] .

ونجد نفس هذا الاعجاب عند الدكتور محمد حجي ، حين قال : « ... هذه الالآف المؤلفة من الكتب المصنفة في مختلف أصول المعرفة الاسلامية وفروعها المفهرسة فهرسة دقيقة ، والموثقة توثيقا محكما ، بأسانيد موصولة من صاحب الفهرس إلى مؤلفها ، هي التي دفعتنا إلى نشر (صلة الخلف) على ما بها من طول»[169] وردد في الثناء على المؤلف وكتابه نفس ما سبق للكتاني أن ردده من إعجاب وثناء وتفضيل[170] .

ومن جهة أخرى ، فليس في المترجمين لابن سليمان من لم يذكر هذا الكتاب ، ويخصص له فقرات مهمة من دون المؤلفات الأخرى ، مبرزا قيمته العلمية ، وشهرته بين الفهارس والمصنفات والاجازات القيمة في محتواها الشمولي ، وهذا لا يمنع من الاشارة إلى أن هناك مصنفات كثيرة في موضوع الصلة ورد الحديث عنها بإسهاب وتطويل مع أنها لا ترقى إلى مستوى شموليتها ، مما يعكس مدى الغبن والاهمال الذي نال ابن سليمان ومؤلفاته من طرف المؤلفين والباحثين ، بالقياس

إلى ما أولي من عناية فائقة في تحبير تراجم حافلة لشخصيات علمية وغير علمية في عصر المترجم لا تدانيه في تنوع ثقافته ومكانته العلمية التي بدأ البحث في الكشف عنها وتقييمها بمزيد من التقدير والاعجاب .

جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد :

جمع ابن سليمان في هذا الكتاب كتابين :

أ -كتاب جامع الأصول لأبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزري المتوفى سنة (606 هـ = 9 - 1210 م) ، ويشتمل هذا الكتاب على الموطأ للامام مالك ، المتوفى (179 هـ - 795 م) ، وصحيح الامام البخاري المتوفى سنة (256 هـ - 870 م) ، والامام مسلم بن الحجاج ، المتوفى سنة (261 هـ - 875 م) ، وسنن النسائي المتوفى سنة (303 هـ - 15 - 916 م) ، وسنن أبي داو د ، المتوفى سنة (275 هـ - 88 - 889 م) ، والترمذي ، المتوفى سنة (279 هـ - 892 م) ، وابن ماجة ، المتوفى سنة (273 هـ - 86 - 887 م) .

ب -كتاب مجمع الزوائد ، ومنبع الفوائد ، للحافظ أبي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي ، المتوفى سنة (808 هـ - 1406 م) .

ويشتمل هذا الكتاب على الزوائد على الأصول الستة ، وهي مسانيد الامام أحمد ابن حنبل (ت 241 هـ 55 - 856 م) ، وأبي يعلى الموصلي (ت 307 هـ - 19 - 920 م) ، وأبي بكر البزار (ت 292 هـ - 904 م) ، ومعجم الطبراني وزوائد الدارمي (ت 255 هـ - 869 م)[171] .

اعتمد ابن سليمان في هذا الكتاب على الكتب المعتمدة في التشريع ، وأخرجه إخراجا يفوق إخراج الهيثمي المذكور[172] ، بما أضاف فيه من إضافات مهمة تنم عن تقدمه في الموضوع[173] ، كما شهد له بذلك غير واحد من رجال الحديث ، ممن تحققوا تفوقه على سابقيه في موضوع الكتاب[174] .

ولما لقيه هذا الكتاب في أوساط رجال الحديث من تداول منذ عصر المؤلف من اهتمام ، وضع عليه بعضهم تعليقا كبيرا في مجلد ، طبع هذا التعليق في جزئين[175] ، وهو من الكتب المشهورة المتداولة في بابه بين رجال السند والحديث في المشرق والمغرب ، كما وضع آخر مختصرا له لطوله[176] .

ألف ابن سليمان هذا الكتاب بدمشق سنة (1093 هـ) ، على إثر نفيه من

مكة ، كما سبق الذكر ، وقد انتهى من تتميمه قبل سنة من وفاته وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (58 ك) ، وتم طبعه مرتين : الأولى بالهند عام 1345 هـ ، 1926 م ، في عشرة أجزاء[177] ، والثانية بالمدينة المنورة في مجلدين سنة 1381 هـ ، 1961 م[178] ، وقد جاء في مقدمة هذه الطبعة الأخيرة : « ... هذه الموسوعة الدينية العلمية تعتبر بحق أكبر دائرة معارف في علم السنة المطهرة ، لأنها ضمت أربعة عشر كتابا ، وزاد عدد أحاديثها على العشرة آلاف حديث في العقائد والعبادات ، والأحكام والمعاملات ، والفضائل والأخلاق ، والمغازي ، والسير والتفسير ، والتوجيه والارشاد ، محذوفة الأسانيد والمكررات ...»[179].

ويبين هذا الكتاب بجانب سابقه : (الصلة ...) عن ثقافة الرجل واطلاعه المتمكن الواسع في مجال العلوم الاسلامية ، خاصة علوم الفقه والحديث والأصول ، مما لا يقصر عنه في مجال التفوق الواضح ، والتضلع النادر ، وبالتالي يؤكد صدق النعوت والأوصاف التي وصفه بها الذين ترجموا له ، وتحدثوا عنه ، فهو بحق فرد الدنيا[180] ، ومن عجائبها[181] ، وحكيم الفقهاء والنبهاء[182] ، وأحد حكماء الاسلام ، وجهابذة الاعلام[183] .

الناقعة – أو – النافعة على الآلة الجامعة :

هي عبارة عن آلة لمعرفة الأوقات ، صنعها ابن سليمان مركبة على شكل لم يعهد من قبل ، ولا سبقه إليها أحد قبله ، وهي كما يقول عنها أبو سالم العياشي في رحلته : « ... من ألطف ما أبدعه ، وأدق ما صنعه ، وأجل ما اخترعه ،... لم يسبق إلى مثلها ، ولا حادى أحدا على شكلها ، بل ابتكرها بفكرة الفائق ، وصنعه الرائق ...»[184] ، وهي مشهورة بالكرة الرودانية ، نسبة إلى بلد المؤلف المخترع لها من غير سابق مثال[185] ، ليستعين بها الناس في ضبط التوقيت ، اشتهرت في عهد المؤلف بالمشرق ولما اتصل أبو سالم العياشي بابن سليمان ، خلال رحلاته الحجازية الثلاث أهداها له المؤلف ليستعين بها في تحقيق القبلة[186] ، فكان أول من أدخلها إلى المغرب[187] ، ووصفها في رحلته قائلا : «كرة مستديرة الشكل ، منعمة الصقل ، مغشاة ببياض الوجه المموه بدهن الكتان ، يحسبها الناظر بيضة من عسجد لاشراقها ، مسطرة كلها دوائر ورسوم ، قد ركبت عليها أخرى مجوفة ، منقسمة إلى قسمين ، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها ، مستديرة

كالتي تحتها ، مصقلة مصبوغة بلون أخضر ، فيكون لها ولما يبدو من التي تحتها ، منظر رائق ، ومخبر فائق ، وهي التي تغني عن كل آلة ، تستعمل في فني التوقيت والهيئة مع سهولة المدرك ، لكون الأشياء فيها محسوسة ، والدوائر المتوهمة في الهيئة مشاهدة ، وتخاريم لسائر البلاد على اختلاف أطوالها وأعراضها»[188] ، وتنافس في اقتنائها ، والاعتماد عليها في معرفة الأوقات ، فكانت له حسنة من الحسنات العظيمة النفع للناس من بعده ، وما تمثله من تجديد واختراع في دالة ما وصل إليه هذا الفن في عصره ، فيما كان بعض علماء أوربا يفكرون مثله في جوانب متعددة من علوم الفيزياء وأحداث مخترعات ، وتأكيد نظريات[189] ، كان لها الأثر الأكبر في تقدم التكنولوجية المعاصرة ، وتصحيح مفاهيم العصور السابقة المظلمة ، وانتشر استعمال هذه الكرة في الهند واليمن والحجاز ، وفي شمال افريقيا[190] ، ووضع لها المؤلف وصفا دقيقا ، وثق به تركيبها ، سماه (الناقعة – أو – النافعة ، على الآلة الجامعة) ، يمكن من خلال هذا الوصف إعادة صنعها وتركيبها .

ويوجد بعض هذا النص في الرحلة العياشية ، وفي الزاوية الحمزاوية[191] ، وقد وقفت في شهر أبريل 1985 م بالرباط على هذه الرسالة الطويلة القيمة وهي مطبوعة في الحجم الكبير ، قام بضبط عبارتها ، وتحقيق مصطلحاتها المستشرق (شارل بيلا) ، صدرها بترجمة موجزة للمؤلف ، ملخصة من مصادرها ، وسماها (الناقعة على الآلة الجامعة) ، وقال إن الخطأ الذي وقع في الاسم كان بسبب جهل النساخ وأوهامهم ، مؤكدا أن هذا الاسم الأخير هو الاسم الحقيقي الذي أطلقه المؤلف على رسالته هذه ، ونظرا لطول الرسالة ، نكتفي هنا بإيراد مقدمتها للوقوف – ولو بسرعة – على أسلوب المؤلف العلمي في وصف الآلة الجامعة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، إن أزهى ما تجلى لبصائر العقول من أوجات عوالم الالهام ، وأبهى ما تجلى بمشاهد عرفانه دوائر النفوس ، وطوالع الأفهام ، حمد من تحجب في سرادقات الكبرياء بسبحات عزه ومجده ، وصدع بمحامد لسن العوالم (وإن من شيء إلا يسبح بحمده)[192] ، فسبحانه من عظيم خجلت سوابق همم الأبطال دون مطالع جلاله المحجب الحاجب ، وحكم نصبت قدرته الباهرة في فسيح الفضاء قبب الأفلاك المرصعات بجواهر زواهر الكواكب ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ، نجوم الاهتداء ، وقادة المشارق والمغارب .

أما بعد ، فإن من فيض منن الله التي لا تحصى ، وإغداق وابل مواهبه التي لا تستقصى ، أن الهمني لوضع آلة يستفيد بها – إن شاء الله – في علمي الهيئة

والتوقيت من القاصرين أمثالي ، ويجمع بها ما تفرق في جميع الالآت من أعمال الأيام والليالي ، ومن أحاط بها علما أغنته عن المجسطا في التعليل والبرهان ، لأنه غيب ، وهذه شهادة ، وليس الخبر كالعيان ، وقد فتح الله تعالى بتعليق هذه العجالة عليها ، وابتهل إليه جل جلاله في الاسعاد بالرجوع ثانيا إليها ، لابراز ما تنطوي عليه وما كمن من الفوائد لديها ، ولرجائي من الكريم نفعها ، سميتها (الناقعة على الآلة الجامعة) وحسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه أنيب في ما توليت ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ، وﷺ وآله وصحبه وسلم»(193) .

منظومة في علم الفلك :

هي قصيدة في علم الفلك عنوانها : (مقاصد العوالي بقلائد اللآلي) ، وهي عبارة عن تقرير مفصل عن التحقيقات التي أثبتها ، والأبحاث التي قام بها ، وما توصل إليه من النتائج في رصد النجوم ، مع نظرياته الخاصة في هذا العلم ، يرد بها أخطاء من سبقه من الفلكيين(194) ، ووضع لها شرحا خالف به من سبقوه ، وهي أكبر من (روضة الأزهار)(195) ، طبعت بالهند مع مؤلفات أخرى للمؤلف ، وقد أشرنا إليها في مقامها . وصف أبو سالم العياشي هذه المنظومة بقوله : «قرب العمل فيها بضوابط وقواعد مبنية على الارصادات الصحيحة ، الواقعة في هذه الأزمنة القريبة»(196) ، وأبان فيها عن إتقانه وتفننه على غير ما هو معهود من قبل .

مؤلفات أخرى :

وله مؤلفات أخرى في مختلف الفنون ، تدل على اهتمامه الواسع وهمته العالية في البحث والتحصيل ، وصبره الطويل في التأليف والتصنيف مع تعدد الاهتمام ، مما من شأنه أن يجعل المطلع يقدر عزيمة الرجل حق قدرها ، خاصة حين يتفوق في شتى فروع المعرفة المتباينة ، لا يجمعها إلا ذوو العزائم والامكانات العقلية الجبارة .

1 – (تحفة الألباب في العمل بالاسطرلاب)(197) ، وهو امتداد وتوسيع لمعرفته في علم الهيئة والتوقيت .

2 – (مائة حديث في الترغيب في اصطناع المعروف) ، وهو عبارة عن محاولة في الأسانيد ، توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت عدد (16 ك)(198) .

3 - (حاشية على التسهيل) ، وأخرى على (التوضيح) ، وكلا الكتابين لابن مالك الأندلسي وابن هشام ، صاحب الألفية المشهورة في النحو (ت 672 هـ) وابن هشام . يتناول موضوعهما النحو ، وقد اعتمد على شروح ابن سليمان لهذين الكتابين كثير من المغاربة والمشارقة منهم الصبان في حاشيته الذي يعتمد على الروداني في هذا الكتاب .

4 - (حاشية على تلخيص المفتاح) للقزويني (ت 739 هـ)[199] .

5 - (شرح مختصر التحرير في أصول الحنفية) ، والكتاب لابن الهمام (ت 861 هـ) ، تولي ابن سليمان شرحه و(يشهد بتبحره ودقة نظره)[200] كما شرحه غيره ، أمثال محمد بن سعيد سنبل الشافعي[201] ، الذي تضاربت الآراء بين المحدثين المشارقة في كونه اعتمد في شرحه على شرح ابن سليمان[202] ، المشهور تداوله في الهند وبلاد المشرق من قبل ، على يد ابنه وفد الله وتلاميذهما[203] .

6 - (منظومة في التصوف) و(جدول في العروض) ، ذكر ذلك محمد المختار السوسي ، وعلق على ذلك بقوله : « ... وهذه المؤلفات يغلب على الظن أنها كلها توجد في الشرق»[204] .

ولعل المنظومة التي يشير إليها علامة سوس ، هي التي كان المترجم قد نظمها في اصطامبول كما سبقت الاشارة ، وقد يكون السوسي يقصد هذه المنظومة فعلا لكون شهرتها ووجودها مقتصرين على الشرق دون المغرب ، منذ نظمها صاحبها هناك ، فلو أنها كانت موجودة بالمغرب لاطلع عليها علامة سوس أو سمع بها على الأقل ، إن لم يكن قد وقف عليها ، لما عرف عنه من سعة الاطلاع والبحث الدؤوب في استقصاء آثار السوسيين وغير السوسيين .

وقد خلف ابن سليمان من بين آثاره شعرا ونثرا ، تغلب عليه النزعة العلمية مما تشهد به قصيدته الفريدة ، التي يجيب بها أحد أصدقائه ، الشيخ يحيا بن الباشا الاحساني ، الذي نزل معه بالمدينة المنورة[205] ، وهي على البحر المديد ، وأبياتها ثمانية ، صاغها على شكل فريد .

فإذا جمعت الحروف الأولى للكلمات الأولى من كل بيت من الأبيات الثمانية ، تحصل على العبارة : (يا يحيا خذ) ، اقتباسا من الآية الكريمة : ﴿يا يحيا خذ الكتاب بقوة﴾[206] ، وهذه هي القصيدة :

يفعت	غرة بدر	تباها	لامع	وجها	سمي	الذكاء
ارتقى	على الأنام	صباه	ساطع	عطره	شذى	النداء
يقظ	فطن أريب	لبيب	شامخ	المجد	ذكي	النهاء
حاكم	نظم اليتامى	ذكاه	بارع	شعرا	سني	البهاء
يقتضي	شكرا علينا	ثناه	باهر	الحسن	بهي	النقاء
أصله	عند انفخام	حباه	رافع	قدرا	ولي	اللواء
خطبه	في نسج نظم	بديع	بحره	طام	وفي	العطاء
ذارشي	عبد الخزامي	شذاه	هامع	زهرا	زهي	الصباء

وإذا قرأت أسطر الأبيات وأجزاءها من اليمين إلى اليسار ، ومن أعلى إلى الأسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ، تحصل على مجموعة من بحور الشعر ، التي ينظم فيها الشعراء ، كالمتقارب والمديد ، والهزج والمجتث ، والمتدارك والبسيط ، ومجزؤها ...

وقد حقق ابن سليمان صياغة البحور الشعرية العشرة في هذه الأبيات الثمانية بتكلف واضح ، على حساب الأسلوب الأدبي ، والمعنى الشعري العفوي ، وطغيان النزعة العلمية ، ومثل هذا ما أدركه العياشي حين اعتذر عن المؤلف عما في هذا النظم من تقعر وتكلف وعدم انسجام ، مع ما يشتمل عليه من « ... أفنان الفنون ويانع الغصون ...»(207) ، مما ينم عن حظ المترجم في الشعر والأدب .

وغير خاف أنه كتبها مجيبا صديقه الاحساني السالف الذكر ، كما ذكر ذلك المؤلف نفسه فيما ذيل به قصيدته فقال : « ... دونكها بكرا تدانيها ، لأنك أخو أبيها ، أقترحها فكر بارد ، وقدحها زند خامد ، قال تعالي : ﴿يخرج الحي من الميت﴾ . وفقتها من القصائد عشرا ، وفوقتها من النوافح نشرا ، لتكون مكان قصيدتك الباهرة ، فإن لا قيتها فيا فوزها بسعادتها ، أو ألقيتها ، فيا لخسارتها في تجارتها ، فإن قلت : الشعر بالشعر ربى ، والتفاضل في البيع ربى ، قلت : التفضيل عند المالكية حاصل ، والتحصيل بعد المعية فاصل ، وقول باهرتك ، إن القريض على العبيد عسير علي ، بمعنى عند ، وسبق قلم ، فكتب محل الكاف عينا ، والتاء سينا ، تذنيبا منه بنكتة كالشمس خفاها ، والضياء دجاها»(208) .

وفي هذا الكلام ما يدل على طغيان النزعة العلمية في تفكير الرجل ، وتشبعه بالثقافة الاسلامية ، يستصدر منها في صياغة أفكاره ومعانيه ، ليقدمها حتى في معرض التأدب ، تعبيرا عن مشاعره نحو صديقه الذي تربطه وإياه مودة صادقة ، وعلاقات واضحة .

مكانته العلمية :

كان ابن سليمان سيء الحظ في كتب التراجم والمناقب ، التي استوعبت تراجم أمثاله أو من هم دونه ، بالنظر إلى الحيز الصغير الذي خصصه له من تناولوا ترجمته في مصنفاتهم ، بالمقارنة إلى شخصيات علمية أخرى ، سواء كان الذين كتبوا عنه من المشارقة أم من المغاربة ، إذ لم يكن ما قالوا عنه كافيا – بجانب الغموض الكثيف الذي يحيط بحياته – للتعريف بآثاره ومكانته العلمية التي لم يتردد أحد من المترجمين له في الاشارة إلى علو كعبه العلمي وغزارة معارفه ، وتأثيره في الحياة العلمية بالمشرق في عصره . مما لا نجد له سببا قويا في إهماله ، من سوى ما عرف عن المشارقة من مواقف لا تبالي بالشخصيات المغاربية ، نتيجة شعور أولئك بعقدة الأستاذية لهؤلاء ، وتلمذة هؤلاء لأولئك ، تحت تأثير جملة من العوامل الدينية والسياسية والمذهبية والثقافية ، لا يتسع المجال هنا لاستعراضها .

وإذا كان ما ذكر من الأسباب التي جعلت المشارقة لا يولون في مصنفاتهم للشخصيات المغاربية ما يستحقون من اهتمام وعناية – على عكس ما هو الشأن بالنسبة للمشارقة في مصنفات المغاربة – فإن هناك سببا آخر مهما بالنسبة للمترجم في كتب المغاربة ، ألا وهو انقطاعه بالشرق ، وندرة اتصال ذكره في المغرب منذ فارقه في رحلته إلى تلك الديار ، كما سبقت الاشارة إلى هذا في صدر هذا الكتاب .

فلولا أبو سالم العياشي الذي عرف به في رحلته ، ونبه إلى علمه بذكره وآثاره ، ما كان ليصلنا عنه ما وصلنا اليوم ، ولا ألتمس المغاربة اليوم أخباره في مؤلفات المشارقة ، الذين أغفلوه ، لولا محمد المحبي (ت 1111 هـ) الذي أفرد له ترجمة موجزة ، استقى عناصرها من شيخه عبد القادر بن عبد الهادي ، أحد تلاميذ المترجم الملازمين له في رحلته إلى القسطنطينية(209) .

فالمصادر الأساسية لأخبار ابن سليمان إذن ، إثنان ، الأول مشرقي والثاني مغربي ، وما سواهما ناقل عنهما ، بجانب فهرسه صلة الخلف ...) ، الذي لا تخفى أهميته في التعريف بمختلف جوانب حياة ابن سليمان التاريخية والعلمية .

واعتمادا على ما ذكره العياشي والمحبي ومن نقل عنهما ، سوف أحاول أن أرسم خطوطا عريضة لشخصية المترجم ومكانته العلمية انطلاقا مما تناقلته كتب التراجم عن المصدرين من عبارات التقدير والثناء في حق شمولية ثقافته وتعدد روافدها العلمية ، واعتبرته ظاهرة عصره ، المتفرد باستيعاب شمولي في شتى العلوم والفنون ، قال عنه صديقه العياشي الذي يعرفه جيدا ، إنه «المتوقد فطنة والمتوهج ذكاء ، ممتلىء حكمة وإيمانا ، ولم يرشح له وعاء ، ولا حل له أحد وكاء ، ... وبلغ على حداثة سنه مبلغا عجز عنه فحول الرجال المتقنين في علوم كثيرة ، والمتحلي بحلى من محاسن أثيرة»(210) . كما يتحدث محمد بن ناصر في سياق حديثه في رسالة وجهها إلى المجاهد الخضر غيلان من مصر ، يخبره فيها بأحوال ابنه محمد بن الخضر غيلان حين لقيه بالمسجد الحرام في صحبة ابن سليمان ، ويصف ابن ناصر المترجم بالتقوى وشدة الورع والولاية قائلا : « ... رجل ما رأيت في زماننا مثله زهدا وانقطاعا إلى الله سبحانه ، وهو صاحبنا محمد بن سليمان الروداني»(211) .

وقد اتفق الجميع على أن قدرات الرجل العلمية ، وصبره على البحث والدرس قلما أتيحت لأمثاله ، وأن ذهنيته لم تكن عادية ، مشارك في جميع العلوم مشاركة تفوق ما هو معتاد من غيره من العلماء(212) ، في الحديث والتفسير والفقه ، وأيام العرب وأشعارهم واللغة والنحو ، والتاريخ ، والرمل والأوفاق وسر الحرف والكيمياء ، والمنطق والطبيعة والرياضيات والهيئة ، وعمل الاسطرلاب وغيره من الآت التوقيت ، كالأرباع والدوائر والأنصاف والماكانات ، وجبر الزجاج المصنوع(213) ، وحذق ذلك كله أتم الحذق(214) .

وفي مجال الطب يشهد له محمد بن ناصر بعلو كعبه فيه ، وأنه لا يساويه في معرفته بأنواع العلاجات وأساليبه إلا داو د الأنطاكي(215) ، مع إتقان أنواع الحرف اليدوية ، كالطرز والصياغة والخرازة وتسفير الكتب(216) ، ووضع في اللغة عدة شروح وحواشي ، كان يقوم بتدريسها للطلبة في النحو والبلاغة ، وفي العلوم الفلكية كان منهجه الملاحظة والتجربة للتسليم بالحقائق المؤيدة بالبرهان والدليل .

وفي مجال الحديث ، كان القرن (11 هـ) عصر ازدهار الدراسات الحديثية ورواياتها ، وشب على مدارسة هذا العلم طيلة أطوار رحلته العلمية بالمغرب والمشرق ، وأتاح له اتصاله بعديد من الشيوخ الذين سبق ذكرهم في تضاعيف هذا الكتاب ، أن ينشأ متضلعا في الحديث ، حتى عد من مسانيده في هذا

القرن[217] ، وإمام من أئمة روايته ، أمثال أبي العباس أحمد المقري ، وأحمد بن يوسف ، وعبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي ...[218].

تلاميذه :

ترك المترجم تلاميذ كثيرين في مختلف أنحاء العالم الاسلامي من بعده ، أخذوا عنه العلم ونشروه في أجيالهم برواياته ، خاصة في رواية الحديث وعلومه ، إما تلقيا أو إجازة ، مشارقة كانوا أو مغاربة ، ترددت أسماء كثيرين منهم في كتب الحديث والتراجم والتصوف وغيرها ، وأغلبهم من المشارقة ، أخذوا عنه بالمدينة المنورة ومكة ودمشق الشام ...

وفي هذا الفصل نستعرض لائحة لأسماء بعض المشهورين منهم ، ممن حملوا راية رواية الحديث من بعده ، وكان لهم ذكر حافل في ميدانه ، وترددت في كتبه أسماؤهم ، وعدوا من رجاله في مختلف أنحاء العالم الاسلامي .

1 – ابنه (وفد الله) : ولد بمكة على الراجح في تاريخ غير مذكور ، ونشأ في كَنَفِ أبيه وتربيته ورعايته ، أخذ العلم عليه وعلى غير من الشيوخ المشارقة ، لكن استفادته كانت على يد أبيه في الحديث وطرقه[219] . يروى عنه كافة مروياته في (الصلة ...) ، وأجاز بها هو أيضا تلاميذه .

وذكر الاسحاقي في رحلته أنه اتصل بوفد الله في المدينة وتكررت مجالسته له بدار له بجوار المسجد ، وقال عنه أيضا أنه وقف مع الأميرة (خناثة بنت بكار) زوجة المولى اسماعيل خلال رحلتها الحجازية سنة (1143 هـ) ، حتى اشترت هناك منزلا بالمدينة وحبستها على الغرباء بقصد نيل الأجر والمثوبة[220] .

وبواسطة تلاميذ ابن سليمان وابنه وفد الله ، انتشر كتاب (صلة الخلف بموصول السلف) في بلاد المشرق والهند ، وأجاز به الابن كثيرين من تلاميذه الهنود فكان ذلك سببا في انتشار كتاب الصلة بالهند أكثر[221] ، حتى استغرب كثير من المشارقة شهرة مرويات الروداني في بلاد الهند ، وظنوا أن بعض المنتسبين إلى الروداني دخل الهند ونشر مروياته هناك .

ويكاد ذكر وفد الله يكون مجهولا بين المؤرخين ، ولم يذكره أحد من المشارقة ولا المغاربة ، إلا ما خصه به الاسحاقي – جامع رحلة خناثة بنت بكار – السالفة الذكر ، وانتشرت رواياته وروايات أبيه في المشرق إلى أواخر القرن (12 هـ) ، وآخر من يرويها من تلاميذه : الشيخ صالح بن ابراهيم الجنيني (1170 هـ) ، بن

ابراهيم الجنيني تلميذ ابن سليمان ، وصالح هذا شيخ المالكية بدمشق ، هو وأبو الفتح جمال الدين يوسف بن محمد الدمشقي (ت 1173 هـ) ، وابن سنة الفيلالي (ت 1186 هـ)[222] .

2 – محمد بن عبد العزيز الفاسي : من تلاميذ ابن سليمان من المغاربة ، أجازه المترجم نفسه بكتابه الصلة وغيره ، سنة (1086 هـ)[223] .

3 – أبو سالم العياشي صاحب الرحلة[224] .

4 – عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي ، سنة (1086 هـ) ، وهي نفس السنة التي أجاز فيها العياشي[225] مع الملا ابراهيم بن حسن الكوراني ، ومحمد عبد الرسول المدني[226] ، وأبي الحسن الحريشي ، وسليمان بن محمد الدراوي ، وغيرهم كثير[227] .

5 – الشيخ تاج الدين عبد المحسن القلعي ، قاضي مكة ، حنفي المذهب ، ترجم له الاسحاقي في رحلته ، أخذ الحديث عن ابن سليمان بمكة وعن عيسى الثعالبي ، وحسن العجمي ، وعبد الله البصري .

6 – محمد بن أبي بكر الشلبي ، مؤلف كتاب : (مشرع الراوي في مناقب بني علوي) . وقد ذكر غير واحد أن هذا من تلاميذ المترجم في معرض الاشادة بأهمية كتابه وتقريظه .

7 – الشيخ ابراهيم الجنيني السالف الذكر ، (1040 – 1108 هـ) وهو ابراهيم بن سليمان الجنيني الدمشقي ، كثير الرحلة في طلب العلم ، حدث مشهور بالشام في عصره . يروي عن ابن سليمان الحديث بالاجازة[228] وأخذ عن خير الدين الرملي ، وهو الذي أشرنا إليه في ترجمة هذا الشيخ ، وأنه هو متمم فتاوي شيخه بإذن منه وبعد وفاته[229] .

8 – ابراهيم بن محمد الشهير بابن حمزة : (1054 – 1120 هـ) ، من أشهر تلاميذ المترجم ، له مؤلفات في عدة فنون ، منها : (البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف)[230] .

9 – محمد بن محمد النخلي المكي ، شهاب الدين النخلي الشافعي ولد بمكة وأخذ بها عن شيوخها ، منهم ابن سليمان والثعالبي والبابلي وغيرهم في مصر والحجاز والشام ، توفي بمكة سنة (1130 هـ)[231] .

10 – عبد الله البصري المكي الأصل (ت 1134 هـ) ، أخذ عن المترجم وعن البابلي ، ويحيا الشاوي ، والكوراني ، ومحمد بن علي الكاملي وآخرين

غيرهم[232] ، له مؤلفات في الحديث ، اعتنى بها أهل مصر عناية زائدة[233] ، وهو فقيه ومحدث مشهور ، أخذ أكثر مروياته عن ابن سليمان بالحجاز ،[234] .

11 - أحمد بن قاسم البوني التميمي ، علامة ومحدث مطلع ، أخذ عن ابن سليمان وآخرين مغاربة وجزائريين وتونسيين ، كاللقاني الابن ، وأحمد بن عبد اللطيف البشيشي ، ويحيا الشاوي ، والخرشي ، والزرقاني ... له تآليف ومنظومات كثيرة ، بلغت ما يناهز المائة ، أعظمها في السنة وعلومها ، ترجم له عبد الرحمن الفاسي في رحلته وغيره[235] . توفي سنة (1139 هـ) .

12 - سعيد بن محمد ، مفتي المالكية بدمشق ، واحد أعلامها في علوم المعقول ، أجازه ابن سليمان بالحرمين ، توفي سنة(1147 هـ)[236] .

الخاتمة :

بهذه اللائحة لبعض تلاميذ محمد بن سليمان الروداني ، ينتهي هذا التعريف الموجز ، والجرد السريع لنشأته وأطوار حياته ، وما يلابسها من غموض وابهام ، كان القصد منه التعريف به وبآثاره بصفة شاملة ، حتى يتسنى لمن لم يتمكنوا من جيل اليوم من معرفته وحتى العلم بوجوده .

وقد كان مني هذا العمل إسهاما متواضعا آليت على نفسي القيام به في حق هذه المدينة التاريخية والعلمية العتيدة : (تارودانت) ، التي طوقت لها في عنقي بجميل كان هو الحافز الأسمى الذي حفزني إلى معاناة كثير من الصعاب ، ومغالبة عديد من العراقيل التي استهان بها الجهد ، وتجاهلت وجودها العزيمة والايمان بالقصد .

ولم يكن الهدف مما قمت به أن أحلل شخصية محمد بن سليمان العلمية وتقييم آثاره المتعددة ذلك لأن تاريخ تارودانت ، العلمي وغير العلمي ، في حاجة ماسة إلى التعريف به أولا ، واستقصاء مختلف الكتب والمصادر ، وجمع مادة للتحليل والتقييم ، وهو عمل في حد ذاته عمل عسير ، يتطلب الدأب والاستمرار ، ويستدعي جهدا مضنيا لا يدرك ثقله ألا من مارس وغامر ، سيما وأن مصادر المادة التاريخية لحاضرة سوس (تارودانت) قليلة في عددها ، ونادرة في عطائها ، شحيحة في ما تقدمه من معلومات ...

وبالاضافة إلى ذلك ، فقد نال شخصية محمد بن سليمان من الغبن والاهمال حظ كبير ، وهو مجال عريض لاستقصاء الأسباب والعلل والعوامل الكامنة وراء

ذلك ، بجانب الظروف التاريخية والعوامل المذهبية والسياسية التي لا شك لها تأثير واضح في موقف الاهمال والاغفال الذي حظي به الرجل من حركة التدوين عامة ، حتى أننا اليوم نستغرب لذلك أمام مقامه العلمي ، ونبوغه المتفرد في شتى المجالات الاسلامية والعلوم العقلية ، التي ينعقد حولها الاجماع .

ولا يدرك ما للرجل من شهرة وشفوف على الأنداد ، إلا من وقف على ما قيل في حقه ، سواء من الذين تحدثوا عنه بالمشرق أم بالمغرب .

ولذلك خصصت للمترجم هذا التعريف ، وأفردته بهذا المُوَيْلِف خدمة لهذه المدينة ، ولأجيالها الصاعدة وللوطن عامة ، حتى يستطيع منهم الباحثون الذين سيتصدون للدراسات العلمية والأدبية والتاريخية وغيرها ، أن يجدوا بين يديهم شمعة خافتة الضوء في تلمس طريق البحث ، ومعرفة الخطوط الأولى لحياة ابن سليمان وبعض مؤلفاته. وبعض تلاميذه ، استجلاء للغموض والنسيان اللذين يحيطان شخصيته العلمية الفذة عند أجيال اليوم ... ولعل ذلك قصارى هذا الكتاب وعلى الله قصد السبيل .

هوامش

(1) سوس العالمة ص 19
(2) مجلة تطوان ع 9 ص 61 سنة 1964
(3) الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة ، ورقة 132 . مخطوط خاص
(4) مجلة تطوان ع 1 ص 8 سنة 1964 . كان أحمد المنصور السعدي قد وزع المغرب على أبنائه ، فولى ابنه زيدان على (تادلا) ، ومحمد الشيخ على (فاس) ، وأبا فارس عبد العزيز على (سوس) . وبعد وفاته تطلع كل واحد منهم إلى أن ينصب نفسه خليفة لأبيه إلى أن آلت الأمور إلى ما آلت إليه
(5) نزهة الحادي ص 192 — 193 . / مجلة تطوان . ع 9 ص 82 — 127 . سنة 1964
(6) النزهة ص 206 — 207 / الأعلام للمراكشي ج 2 ص 88 ط أولى / ايليغ قديما وحديثا نقلا عن المصادر الأصيلة سلسلة 2 ص 42 — 417 . دوكاستري
(7) النزهة ص 208 — 211
(8) تافيلالت المعنية هنا هي التي توجد في وادي (أيتْ تَّامنت) في جماعة تالكجونت دائرة تارودانت ، وليس تافيلالت الموجودة في قيادة أركانة ، دائرة أولاد التايمة كما يتوهم بعض المعتنين .
(9) الفوائد الجمة ورقة 105

(10) الاعلام للمراكشي ج 2 ص 90

(11) هناك عوامل كثيرة دفعت الامير يحيا الحاحي إلى الخروج عن زيدان جعلت المؤرخين يختلفون في حقيقة الدافع بيحيا إلى المشاركة في طلب الحكم ، سنلم بها وبتفاصيلها في كتابنا : (تاريخ تارودانت) إن شاء الله .

(12) هذا الشطر لم يستقم وزنه في الأصل

(13) وقفت على هذه القصيدة في إحدى خزانات تارودانت الخاصة مكتوبة في أوراق متساقطة الأطراف ، لكن الكتابة سالمة من البتر ، منسوبة إلى الأمير يحيا ، وبحثت في مصادر ترجمة يحيا علني أعثر على نص هذه القصيدة للمقابلة ، فلم أجدها لاعند العلامة السوسي أو عند غيره ، مما يبدو معه أن القصيدة لم تكن متداولة معروفة قبل الآن ، وذلك ما أكده لي أستاذي المرحوم عبد الحميد بن عيسى الباعمراني رحمه الله .

(13) النزهة ص 212 .

(14) خلال جزولة ج 2 ص 169

(15) كان زيدان يعتقد أن مجرد القضاء على يحيا الحاحي وتنحيته سيمهد له الطريق إلى الهدوء والاستقرار ، وبالتالي تخليص تارودانت من سيطرته ، وضمها إلى ما تبقى من نفوذه ، إذ كان هذا فيما يبدو الدافع بزيدان إلى التخلص من الحاحي بمكيدة تسميمه واغتياله . وهذا ما لم تشر إليه المصادر المغربية ، وقد جاء خبر اغتيال يحيا من طرف زيدان ، في تقرير سري بعث به مبعوث انجليزي إلى حكومته ، يتحدث فيه عن الصراع القائم بين السلطان زيدان والأمير يحيا ، وما كان بينهما من أحداث عسكرية وسياسية . ذكر هذا التقرير أن الصراع لم يدم طويلا بين الطرفين ، إذ دس زيدان ببعض رجاله إلى يحيا فسممه سرا يوم سادس جمادى الثانية عام 1035 هـ ، الموافق ليوم رابع مارس سنة 1626 م بقصبة تارودانت (مجلة تطوان ع 10ص 68 ، 107 . سنة 1965 م)

(16) هو أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني الرجراجي ، من قرية (أساكان الطلبة) من أفينيس بسكتانة ، دائرة تاليوين إقليم تارودانت ، أخذ العلم عن جملة من الشيوخ بسوس وفي الحواضر الكبرى كفاس وغيرها ، ونال من العلم درجة كبيرة ، بوأته مناصب سامية سنية ، وصفه غير واحد بأوصاف جليلة تدل على رسوخه في العلم إلى درجة الاجتهاد ، ولي قضاء بلاد (تامسنا) ثم قضاء (تارودانت) ثم القضاء والفتيا بـ (مراكش) أواخر حياته . كما كانت له مناظرات عدة ومحاورات كثيرة علمية مع عديد من تلاميذه الجزوليين وغيرهم من الشيوخ ، مما سجله في (أجوبته) التي جمعها تلميذه وبلديه محمد بن الحسن الروداني .

للسكتاني تلاميذ كثيرون ، أكثرهم كان له دور وتأثير في الحياة السياسية والعلمية والثقافية بالبلاد خلال القرنين (11 ـــ 12 هـ) كأبي حسون السملالي وأبيه من قبله ، ومحمد بن ناصر الدرعي والحسن اليوسي ، ويورك بن عبد الله السملالي ، وعبد العزيز الرسموكي ، وعبد الله بن يعقوب السملالي ، وغيرهم ، وللسكتاني تآليف عدة ، منها : (شرح التحفة) للسنوسي ، الفه السكتاني برغبة من السلطان الوليد بن زيدان ، كما ألَّف أيضا : (بغية الظمآن من فوائد ابي حيان) وكذلك (تخميس قصيدة بانت سعاد) مع (الأجوبة الكبرى) المذكورة و(الصغرى) ...

ولما استولى أبو زكريا الحاحي على تارودانت ، وقام على السلطان زيدان ، غادر السكتاني تارودانت بعد خلاف بينه وبين يحيا خائفا يترقب ، ونزل بمسقط رأسه بسكتانة قبل أن ينزل بمراكش ليتولى قضاءها وفتواها ، في ظل ابناء المنصور ، الذين التزم لهم بالطاعة والبيعة إلى أن توفي سنة (1062 هـ) رحمه الله .

ترجم للسكتاني : أبو زيد التامانارتي في الفوائد ، والروداني في صلة الخلف ، وكذلك الفاسي والمختار

السوسي ، والحضيكي والقادري وابن عجيبة ، وعباس المراكشي ، وبروكلمان ، وليفي بروفنصال ، وابن سودة ، وحاجي خليفة ، وابن الموقت ، والزياني ، واليوسي والأفراني ، والمحبي، والكرامي، والزركلي، والحجوي ، ومحمد حجي .

(17) الفوائد الجمة ، ورقة 160 .

(18) الفوائد الجمة ، ورقة 52 ـ 54 ـ 159 .

(19) ايليغ قديما وحديثا ص 83 ـ 84 .

(20) الفوائد الجمة ، ورقة 143 .

(21) ايليغ قديما وحديثا ، ص 83 ـ 84 .

(22) ايليغ قديما وحديثا ، 83 ـ 85 ـ 91 .

(23) الفوائد الجمة ، ورقة 187 . / ايليغ قديما وحديثا ص 71 ـ 73 .

(24) ايليغ قديما وحديثا ، ص 69 . نقلا عن المصادر الأصيلة . السلسلة الأولى . القسم الفرنسي ج 3 ص 40 و358 .

(25) في هذه الفترة كان التامانارتي نازلا بسندالة بعد اعفائه من القضاء ..

(26) ويقصد بها تارودانت .

(27) يقصد بهذه النعوت آل يحيا الحاحي ، ومن يشايعهم ويناصرهم .

(28) في هذا الكلام يتجلى موقف التامانارتي من خلفاء يحيا ، كما يستفاد منه كذلك مدى الضعف الذي آل إليه هؤلاء ، وما أصابهم من خلاف وتمزق لكلمتهم وذهاب ريحهم وزوال المجاهرة بالانتصار إليهم ...

(29) ايليغ قديما وحديثا ص 73 . نقلا عن الفوائد الجمة .

(30) الفوائد الجمة ، ورقة 168 .

(31) الفوائد الجمة ، ورقة 168 .

(32) الفوائد ، ورقة 168 .

(33) نفس المصدر .

(34) فتاوي السكتاني ، ورقة 172 - 173 .

(35) الفوائد ، ورقة 160 .

(36) الفوائد ، ورقة 186 .

(37) الفوائد الجمة ، ورقة 92 .

(38) الفوائد الجمة ، ورقة 187 .

(39) الفوائد الجمة ، ورقة 27 . / درة الحجال ج 3 ص 301 ط محققة . طبقات الحضيكي ج 2 ص 276 .

(40) ستردد تراجم هؤلاء في كتابنا : (الحياة الفكرية ...) .

(41) المعسول ج 5 ص 28 . / الحياة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 606 .

(42) التشوف ص 348 - 351 . وستأتي ترجمته في كتاب : (تاريخ تارودانت) .

(43) الأعلام للمراكشي ج 2 ص 114 .

(44) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 طبعة حجرية .

(45) المقصد الأحمد ، في التعريف بسيدنا أبي عبد الله أحمد ص 9 - 14 ، طبعة حجرية .

(46) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 .

(47) الحركة الفكرية ج 2 / 529 - 554 .

(48) الحركة الفكرية ج 2 / 541 .
(49) الحركة الفكرية ج 2 ص 534 .
(50) نفس المصدر والجزء ، ص 537 .
(51) نفس المصدر والجزء ، ص 532 .
(52) طبقات الحضيكي ج 2 ص 57 .
(53) نشر المثاني ج 2 ص 21 . / الحركة الفكرية ج 2 ص 551 . / الحياة الأدبية بالمغرب ص 86 . وفي الأخيرين لائحة مصادر ترجمته .
(54) مؤرخو الشرفاء ص 187 . / الحياة الأدبية بالمغرب ص 102 . / الحركة الفكرية ج 2 ص 501 ، 551 مع ذكر مصادر تراجمهم .
(55) دعوة الحق ع 2 س 16 ص 145 .
(56) نفس المصدر .
(57) الحركة الفكرية ج 2 ص 532 - 534 .
(58) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 .
(59) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 .
(60) الحركة الفكرية ج 2 ص 520 - 528 .
(61) نفس المصدر ، مع ذكر مصادر ترجمته .
(62) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج 2 ص 524 ، مع ذكر مصادر ترجمته .
(63) نفس المصدر ، مع ذكر مصادر ترجمته . ص 526 .
(64) نفس المصدر ، مع ذكر مصادر ترجمته . ص 526 .
(65) نفس المصدر ، مع ذكر مصادر ترجمته . ص 527 .
(66) نفس المصدر ، مع ذكر مصادر ترجمته . ص 528 .
(67) نفس المصدر ، مع ذكر مصادر ترجمته . ص 528 .
(68) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 . طبعة حجرية .
(69) شرح الفتح الوهبي ، على تاريخ أبي نصر العتبي ج 1 ص 1 .
(70) خلاصة الأثر ج 4 ص 206 - 207 .
(71) مزيد من التفاصيل في هذا الموضوع توجد في كتابنا (الزجل الشعبي بتارودانت - الملحون) الجزء الأول ، عن حركة التبادل الحضاري القائم بين مراكش وتارودانت عبر التاريخ ، ووضعية المواصلات ، وما يرادف ذلك من المتغيرات والتفاعلات الاقتصادية والاجتماعية والصناعية ، التي رافقت هذا التبادل التاريخي المستمر بين المدينتين .
(72) نشر المثاني ج 2 ص 320 - 321 .
(73) الصفوة للأفراني ، ورقة 114 . مخطوط .
(74) هو محمد بن الحسن الدادسي الأصل ، ولد سنة (978 هـ) ، وتنقل من أجل العلم في المغرب ، ومسته نفحة صوفية ، ونزل في قرية (واويزغت) بجبال (تادلا) ، منقطعا فيها إلى العبادة والتعليم وإرشاد الناس وتربية الذوق ، إلى أن توفي سنة (1062 هـ) . ترجم له القادري والأفراني والحضيكي والمراكشي والزركلي وغيرهم .
(75) سورة الشورى ، آية 26 .
(76) الاجرومية : مقدمة في النحو مختصرة مبسطة العبارة ، يدرس عليها الطلبة المبتدئون في المدارس المغربية العتيقة ، منذ عصر مؤلفها وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن داوود الصنهاجي الصفريوي ،

المعروف بابن و(آجروم : أكرام) بمعنى الفقير الصوفي ، ولد سنة (723 هـ) ، انظر ترجمته في سلسلة ذكريات مشاهير المغرب رقم (20) .

(77) خلاصة الأثرج 4 ص 206 .

(78) تقع الزاوية الدلائية الحديثة في الموقع الحالي لزاوية (أيت إسحاق) بين خنيفرة وقصبة تادلا ، اسسها حفيد مؤسس الزاوية الأولى سنة (1048 هـ) . راجع تفاصيل ذلك في كتاب : الزاوية الدلائية ، الباب الأول-ص 21 - 23 .

(79) تراجم هؤلاء في الباب الثالث من كتاب (الزاوية الدلائية) ص71 - 114 ، والحركة الفكرية ج 2 ص 499 - 503 .

(79م) المحاضرات ص 35 . ط . حجي .

(80) خلاصة الأثر ، ج 4 ص 207 .

(81) من كبار التربية الصوفية بالمغرب في القرن (11 هـ) ، ولد سنة (978 هـ) ، وتلقى تعليمه عن أبيه عبد الله الأندلسي (ت 1022 هـ) وغيره من الشيوخ .

وقد كان أبوه تلميذا في الطريقة لبعض السوسيين ، منهم أبو الحسن علي بن داوود السوسي ، دفين بلاد مرنيسة ، وهذا بدوره تلميذ الشيخ أبي الشتاء الخمار الفشتالي ، ومنهم الشيخ علي بن زُرُّوقْ السوسي ، المتوفى سنة (1015 هـ) ، وهو من تلاميذ الشيخ أبي عثمان سعيد بن عبد المنعم الحاحي (ت 953 هـ) .

أسس الشيخ الأندلسي زاويته المشهورة بالزاوية المخفية بفاس سنة (1048 هـ) ، وتصدر فيها للتعليم والتربية والارشاد الديني ، وإطعام المنقطعين ، وتخرج عليه عديد من الطلبة والعلماء ورجال التربية الصوفية في عصره ، وشارك في جهاد النصارى الأسبان في ثغر المعمورة مع محمد الحاج الدلائي سنة (1057 هـ / 1647 م) ، واستمر في ذلك إلى أن توفي سنة (1062 هـ) ، وخلفه ابنه في عمارة الزاوية . انظر (المقصد الأحمد في التعريف بمولاي أبي عبد الله أحمد) لعبد السلام القادري .

(82) سبقت ترجمته في ص (16) .

(83) ولد محمد بن سعيد الميرغتي بمدشر (ميرغت) بقبيلة الأخصاص سنة (1007 هـ) ، وبدأ تعليمه ببلاده على يد أساتذة متعددين ثم انتقل بين مدارس سوس ، وتافيلالت ، ورجع إلى مسقط رأسه قبل أن ينتقل إلى مراكش لاستكمال دراسته بها على يد السكتاني وغيره .

وكان سبب انتقاله إلى مراكش من بلده ، مضايقات أهلها له وتجاسرهم عليه ، مما دفع به إلى مغادرتهم إلى مراكش ثم الزاوية الدلائية ، واستقر به المقام في النهاية في مراكش ، وتصدر للتدريس في جامع (المواسين) .

أخذ الميرغتي خلال رحلاته الدراسية ، عن محمد بن ناصر الدرعي والدلائيين ، ومحمد بن عبد الله السوسي ، وأحمد بن يحيا التنزرتي وأحمد المنجور الفاسي ، وعبد الواحد بن عاشور السلاوي ...

كان من كبار العلماء المتمكنين من عدة علوم وفنون شتى من رياضيات وحديث وتفسير وسير وفقه وأدب وهيئة وروحانيات وطبيعيات وفلك وطب ، وصيدلة وأعشاب ، وقراءات وعلوم القرآن والتاريخ واللغة والنحو والأوفاق والتوقيت والحساب والتصوف ... وألف في جل هذه العلوم والفنون مؤلفات عديدة ، تدل على تنوع ثقافته واتساع أفقه العلمي .

ومن تلاميذه الحسن اليوسي ، ومحمد بن سليمان الروداني ، والحسين ابن محمد بن ناصر ، وكثير غيرهم ، وتوفي صاحب الترجمة بمراكش بمرض الطاعون سنة (1089 هـ) ، ودفن بباب أغمات ، قرب ضريح شيخه السكتاني الذي وردت ترجمته في (ص16) من هذا الكتاب ، وسيتم التعريف به في تأليف مستقل بحول الله .

(84) هو سعيد بن إبراهيم قدورة ، التونسي الأصل ، الجزائري المنشأ أخذ العلم عن جملة من الشيوخ بالجزائر ، كالعلامة سعيد المقري وعن غيره من المغاربة ، أمثال الفقيهين أحمد بن عبد الله المشهور بابن أبي محلي ، الذي عده من تلاميذه في (الأصليت) ، ومحمد ابن ابراهيم الهشتوكي وغيرهم . يعد سعيد قدورة من الفقهاء المتمكنين والمشاركين في علوم عدة ، موصوفا بالزهد والورع والصلاح ، ومن كبار علماء العصر في بلده واحد أئمة رجال المعقول ، تصدر للتدريس في الجزائر والفتوى والخطابة في مسجدها الأعظم . له تآليف عديدة في العلوم اللغوية والعقلية ، توفي في شهر شوال عام (1066 هـ = 1656 م) ، وتولى مكانه ابنه محمد بن سعيد .

ترجم للشيخ سعيد قدورة كل من : القادري في نشر المثاني ، وفي التقاط الدرر ، والأفراني في ضفوة من انتشر ، وفي النزهة ، وابن زاكور في البستان والبغدادي في هدية العارفين ، وابن مخلوف في شجرة النور الزكية ، وعادل نويهض في أعلام الجزائر ، والزركلي في الأعلام ، ومحمد رضا كحالة في معجم المؤلفين ، وبلقاسم الحنفاوي في تعريف الخلف برجال السلف ، والأزهري في اليواقيت الثمينة ، والعياشي في الرحلة ، ومحمد توفيق المدني في : محمد عثمان باشا . وغير هؤلاء .

(85) محمد عثمان باشا ، ص 45 – 50 .

(86) نفس المصدر ص 82 – 85 .

(87) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 / شجرة النور الزكية ص 316 .

(88) محمد عثمان باشا ، ص 81 .

(89) محمد عثمان باشا ، ص 83 .

(90) نفس المصدر ، 84 .

(91) نفس المصدر ، 85 .

(92) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 .

(93) محمد عثمان باشا ص 82 .

(93م) الحلل السندسية في الأخبار التونسية ج 1 ص 62 – 66 . تحقيق محمد الحبيب الهيلة .

(94) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 – 31 .

(95) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 – 31 .

(96) الرحلة العياشية ج 2 ص 31 .

(97) نفس المصدر ص 32 .

(98) خلاصة الأثر ج 4 ص 205 .

(99) مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد أول ج 1 ص 340 .

(100) تاريخ الشعوب الاسلامية ص 481 ، بروكلمان .

(101) الرحلة العياشية ج 2 ص 31 – 32 .

(102) درس باصطامبول وولي قضاء مصر ومكة ، ثم منصب الفتوى بدار الخلافة العثمانية ، ترجم له المحبي في الخلاصة (ج4 ص 477) .

(103) في هذا العصر ثار جدل فقهي بين العلماء والفقهاء ورجال التربية في كافة أنحاء العالم الاسلامي حول شرب الدخان ، واختلفوا فيما بينهم بين محلل ومحرم وما بين ذلك ، وموقف ابن سليمان في الموضوع واضح ، وهو موقف الأكثرية من الفقهاء .

(104) الرحلة العياشية ج 2 ص 32 .

(105) محمد عثمان باشا ، ص 82 .

(106) تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص 516 .

(107) تاريخ الشعوب الاسلامية ص 479 .

(108) مناقب الحضيكي ج 2 ص 63 .

(109) أبو الحسن علي بن محمد الأجهوري المصري ، من كبار علماء الحديث ببلاد الرافدين ، ومدرسيه المقصودين ، وشيخ المالكية بها ، ولد سنة (975 هـ) ودرس بمصر وبالحجاز ورحل إلى الشام ، ثم استقر في مصر وتولى التدريس بالأزهر الشريف . كان مقصودا من الطلبة من كافة بلاد المشرق والمغرب ، وكان حاد المزاج متضايقا حتى من طنين الذباب ، كثير التشدد على الطلبة ومواخذتهم ، توفي سنة (1066 هـ) وله مؤلفات عديدة .

ترجم له : العياشي في الرحلة ، والمحبي في الخلاصة ، والأفراني في الصفوة ، والكتاني في فهرس الفهارس ، وسركيس في معجم المطبوعات العربية ، والزركلي في الاعلام مع إيراد مصادر أخرى ترجمت له .

(110) هكذا كان التقسيم الجغرافي لشمال افريقيا في القديم ، وعلى هذا التقسيم وردت إطلاقات المصنفين الجغرافيين والمؤرخين في مؤلفاتهم ، سواء منهم المغاربة والمشارقة .

(111) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص 115 ، 262 ، 263 .

(112) الخطط للمقريزي ص 25 – 31 .

(113) دعوة الحق عدد 229 ص 9 . يونيو 1983 م .

(114) دعوة الحق ، عدد 1 سنة 4 ص 47 – 48 . سنة 1960 .

(115) الرحلة العياشية ج 1ص 166 . و ج 2 ص 356 – 368 .

(115م) أنس الساري والسيارب ص 49 . تحقيق محمد الفاسي . 1968 ، وهي رحلة حجازية قام بها بن مليح سنة (1041 هـ) .قبل دخول بن سليمان إليه ، بحوالي ربع قرن من الزمن .

(116) عجائب الآثار ، ج 1 ص 68 .

(117) خلاصة الأثر ج 4 ص 486 .

(118) الرحلة العياشية ج 2 ص 132 . /فهرس الفهارس ج 2ص 190 – 192 .

(119) معجم المطبوعات العربية ج 2ص 1577 .

(120) الشيخ محمد بن عمر الشوبري المصري المولود سنة (977 هـ) ، من علماء الفقه الشافعي المحققين ، ومرجعه في مصر ، ومن المبرزين في علم القرآن والتجويد في عصره ، درس بالأزهر وتولى التدريس والفتوى به ، له تآليف في الفقه والسيرة والقرآن والتصوف ، توفي سنة (1069 هـ) . ترجم له المحبي في (الخلاصة) ، والزركلي في (الاعلام) ، وكحالة في (المعجم) .

(121) شهاب الدين بن محمد الخفاجي ، قاضي قضاة مصر في وقته ولد سنة (977 هـ) ، ورحل من أجل الطلب إلى الشام والروم والحجاز ورجع إلى مصر ، وتولى مناصب القضاء والفتوى والتدريس بالأزهر إلى أن توفي . كان من الشيوخ المشاركين في شتى العلوم والفنون ، ومن كبار الآباء

والمحدثين ، أخذ عنه من الطلبة كثيرون ، منهم المغاربة والمشارقة ، قال عنه ابن سليمان في الصلة : (شهاب الحفاظ والنقاد وملحق الأجداد والأحفاد)
له مؤلفات كثيرة في الحديث والتفسير والسنة وعلومها ، والأدب والتراجم وديوان شعري . توفي (1069 هـ) . ترجم له العياشي والروداني ، وابن مخلوف وسركيس والكتاني والزركلي ...

(122) شهاب الدين أحمد بن أحمد القليوبي ، أحد كبار العلماء والمدرسين بمصر ، له شهرة واسعة بين معاصريه في مناهج التدريس ونفع الطلبة وتفهيمهم ، وأديب متزهد قنوع ، وطبيب ماهر مقصود ، ألف في السيرة والحديث والطب والفقه والتراجم والتاريخ والتصوف ، توفي سنة 1069 هـ . ترجم له المحبي وبن مخلوف وسركيس والزركلي وغيرهم .

(123) الشيخ سلطان بن محمد بن سلامة الحنفي المصري ، ولد سنة (985) من شيوخ الأقراء والتجويد بالقاهرة ، ومدرس متنسك منقبض عن الناس كثير التعنيف للطلبة ، له مؤلفات مذكورة في القرآن والفقه والحديث ، توفي سنة (1075 هـ) . ترجم له العياشي والمحبي والأفراني والزركلي ومحمد رضاكحالة ...

(124) الشيخ أبو عبد الله محمد بن علاء الدين البابلي ، ولد سنة (1000) إمام حافظ للحديث ، واحد أعلامه وأعرفهم برجاله ، أخذ عن خير الدين الرملي – ستاتي ترجمته – وكان مفيدا للطلبة ، أخذ عنه من المغاربة في هذا العهد : الثعالبي السالف الذكر والعياشي وابن سليمان ... له تأليف في الجهاد ، وأصيب بالعمى في أخريات أيامه ، ترجم له المحبي والشوكاني ومرتضى الزبيدي وكحالة والكتاني والزركلي ...

(125) برهان الدين ابراهيم بن محمد الميموني المصري ، من شيوخ التفسير والحديث والعربية والعلوم العقلية ، ومن كبار المدرسين بالأزهر ، له مؤلفات في العلوم المتقدمة ، توفي سنة (1079 هـ) . ترجم له المحبي والأفراني والبغدادي وحاجي خليفة وكحالة والزركلي ...

(126) الشيخ أحمد بن أحمد العجمي الشافعي ، ولد سنة (1014 هـ) ، خاتمة كبار المحدثين بمصر ، انقطع لتدريس الحديث بالأزهر إلى وفاته ، أخذ عنه ابن سليمان وأجازه إجازة خطية ، ذكر الجبرتي في تاريخه أنه اطلع عليها . توفي العجمي سنة (1086 هـ) . ترجم له الجبرتي والكتاني والزركلي وسركيس وكحالة ...

(127) سبقت ترجمته .
(127م) الرحلة العياشية ج 2ص 32 – 35 .
(128) نفس المصدر والجزء ، ص 33 .
(129) الرحلة العياشية ج 2 ص 35 . / خلاصة الأثر ج 4 ص 205 .
(130) مجلة اللسان العربي ، المجلد السابع ، ج 1 ص 308 . يناير 1970 م . / الرحلة العياشية ج 2 ص 37 .
(131) الرحلة ج 2 ص 37 .
(132) نفس المصدر والجزء ص 36 .
(133) الرحلة العياشية ج 2 ص 35 .
(134) الرحلة العياشية ج 2 ص 36 .
(135) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(136) الرحلة العياشية ج 2 ص 35 .
(137) الفكر السامي ج 4 ص 114 – 116 للحجوي . / خلاصة الأثر ج 4 ص 205 للمحبي .
(138) الرحلة العياشية ج 2 ص 35 .

(139) الرحلة ج 2 ص 132 . / فهرس الفهارس ج 1 ص 190 – 192 .
(140) معجم المطبوعات العربية ج 1 ص 506 .
(141) خلاصة الأثر ج 4 ص 205 . / الرحلة العياشية ج 2 ص 311 .
(142) الحياة الأدبية بالمغرب على عهد الدولة العلوية ص 108 . د عمر الأخضر .
(143) خير الدين بن أحمد الأيوبي الرملي ، ولد سنة (993) بفلسطين ، وبها نشأ ، ثم رحل للأخذ والتحصيل بمصر والحجاز والشام ، ونزل بالرملة واعتكف على التدريس والفتوى ، وهو من كبار فقهاء الحنفية بالشام وإمام المفسرين والمحدثين في عصره ، تخرج عليه عديد من العلماء في المغرب والمشرق ، ومن المغاربة : الروداني والعياشي والشاوي الجزائري ، له فتاو مشهورة غير تامة ، قام بإتمام أحد تلاميذه . توفي سنة (1081) .
(144) خلاصة الأثر ج 4 ص 205 . / فهرس الفهارس ج 1 ص 188 / الرحلة العياشية ج 2 ص 311 .
(145) محمد بن حمزة كمال الدين الحسني ، ولد سنة (1024 هـ) ، فقيه ومحدث وأديب وشاعر ، نقيب الشام وصدر علمائه وأدبائه ، له مؤلفات في النحو وغيره توفي (1085 هـ) ، ترجم له المحبي والزركلي مع إيراد مصادر ترجمته .
(146) محمد بن بدر الدين بن عبد الحق بن بلبان ، فقيه حنبلي ، من بعلبك أصلا ، تصدر للتدريس بدمشق إلى أن توفي بها ، وكان يدرس الفقه على المذاهب الأربعة ، له مؤلفات متعددة في العقائد والمذاهب .
(147) خلاصة الأثر ج 4 ص 205 .
(148) نشر المثاني ج 2 ص 82 – 87 . / التقاط الدرر ص 229 .
(149) خلاصة الأثر ج 4 ص 205 .
(150) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 .
(151) خلاصة الأثر ج 4 ص 204 .
(152) الرحلة الناصرية ج 1 ص 31 . / مناقب الحضيكي ج 2 ص 65 .
(153) فهرس الفهارس ج 2 ص 296 – 297 .
(154) عجائب الآثار ج 1 ص 214 .
(155) الصفوة (مخطوط) .
(156) الفكر السامي ج 4 ص 115 .
(157) جامع كرامات الأولياء ج 1 ص 199 .
(158) غنية المستفيد ص 22 .
(159) الفهرس العلمي لرشيد بن المصلوت ص 111 (نسخة خاصة مرقونة) .
(160) طلعة المشتري ج 1 ص 169 .
(161) مجلة دعوة الحق عدد 3 سنة 16 ص 165 .
(162) مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد أول ج 1 ص 337 .
(163) مجلة معهد المخطوطات العربية . مجلد أول ج 1 ص 346 .
(164) مجلة معهد المخطوطات ج 1 ص 345 .
(165) نفس المجلة ص 346 .
(166) فهرس الفهارس ج 1 ص 21 .
(167) هو محمد بن علي الدمشقي ، المشهور ب (ابن حماويه) بن طولون (880 – 953 هـ) ، أخذ عن جلال الدين السيوطي ومن غيره من المشارقة . ترجم له الكتاني في (الفهرس ج 1 ص 355 – 357) .

(168) فهرس الفهارس ج 1 ص 418 – 419 .
(169) مجلة معهد المخطوطات ج 1 ص 337 – 338 .
(170) نفس المصدر والصفحة .
(171) مقدمة (جمع الفوائد ... للمؤلف) ج 1 ص المقدمة ، ط المدينة المنورة ، سنة 1381 هـ – 1961 م .
(172) الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام ج 4 ص 339 . ط فاس .
(173) فهرس مخطوطات الخزانة العامة بالرباط ج 1 ص 20 . سنة 1974 .
(174) فهرس الفهارس ج 1 ص 318 . / دعوة الحق ، العدد 3 ، السنة 16 ص 167 .
(175) الاعلام للمراكشي ج 4 ص 339 .
(176) فهرس الفهارس ج 1 ص 66 – 67 .
(177) الاعلام للمراكشي ج 4 ص 339 .
(178) الموسوعة المغربية . ملحق 2 ص 9 – 10 .
(179) مقدمة (جمع الفوائد ...) للمترجم ، الجزء الأول ، طبعة المدينة المنورة.
(180) خلاصة الأثر ج 4 ص 304 .
(181) نشر المثاني ج 2 ص 322 .
(182) نفس المصدر ص 314 .
(183) النبوغ المغربي ج 1 ص 295 . ط ثانية .
(184) الرحلة العياشية ج 2 ص 38 .
(185) مجلة تطوان عدد 8 سنة 1963 . ص 162 .
(186) نفس المجلة والعدد والصفحة .
(187) نفس المجلة والعدد والصفحة .
(188) الرحلة العياشية ج 2 ص 42 – 43 .
(189) مجلة دعوة الحق ع 3 س 16 ص 165 – 166 .
(190) خلاصة الأثر ج 4 ص 206 .
(191) مجلة تطوان ع 8 ص 151 . سنة 1963 م .
(192) سورة الاسراء ، آية 44 .
(193) الرحلة العياشية ج 2 ص 41 .
(194) الرحلة العياشية ج 2 ص 43 . / نشر المثاني ج 2 ص 322 ط محققة .
(195) منظومة في الميقات لعبد الرحمن الجادري الفاسي ، وصفها الجراد البعقيلي بأنها أبدع ما ألف في علم المواقيت ، وأحسن ما اشتمل منه على نفائس اليواقيت ، وقد شرحها البعقيلي المذكور ، وآخرون عديدون ولها من الشهرة في موضوعها ما للألفية في النحو والعاصمية في الفقه .
(196) الرحلة العياشية ج 2 ص 42 .
(197) لائحة المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط ج 4 ص 30 . / خلاصة الأثر ج 4 ص 206 . / هدية العارفين مج 2 ص 298 . / الفكر السامي للحجوي ج 4 ص 115 . / مجلة دعوة الحق ع 224 ص 53 ، غشت –سبتمبر 1982 م .
(198) فهرس المخطوطات المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط ج 1 ص 20 ، سنة 1974 م . / المخطوطات الموجودة بدار الكتب المصرية مج أول ص 168 . طبعة دار الكتب المصرية ، سنة 1956 م .
(199) دعوة الحق عدد 3 سنة 16 . ص 167 .
(200) شجرة النور الزكية ص 316 .

(201) الاعلام للمراكشي ج 4 ص 359 .
(202) فهرس الفهارس ج 1 ص 66 .
(203) فهرس الفهارس ج 2 ص 67 -125 .
(204)سوس العالمة ص 181 .
(205) الرحلة العياشية ج 2 ص 43 .
(206) سورة مريم ، آية 12 .
(207) الرحلة العياشية ج 2 ص 43 .
(208) الرحلة العياشية ج 2 ص 44 .
(209) خلاصة الأثر ج 4 ص 207 .
(210) الرحلة العياشية ج 2 ص 30 .
(211) طلعة المشتري في النسب الجعفري ج 1 ص 169 . طبعة حجرية .
(212) خلاصة الأثر ج 4 ص 207 . / فهرس الفهارس ج 1 ص 317 .
(213) الرحلة العياشية ج 2 ص 38 .
(214) الفكر السامي ج 4 ص 114 - 116 .
(215) الرحلة الناصرية ج 1 ص 232 .
(216) الرحلة العياشية ج 2 ص 38 . وقد سبق بن سليمان أحد أبناء بلده سوس ، وهو عبد الله بن محمد السوسي ، إلى صناعة الأشياء الدقيقة فكان يصنع بيده ورق الكتابة ، يكتب فيه بخطه سورة الاخلاص وآية الكرسي ومدائح من نظمه : (الضوء اللامع ج 5 ص 57) للسخاوي .
(217) فهرس الفهارس ج 1 ص 62 . وج 2 ص 297 . / الفكر السامي ج 4 ص 115 .
(218) فهرس الفهارس ج 1 ص 47 .
(219) فهرس الفهارس ج 1 ص 32 . / استنزال السكينة الرحمانية ص 25 .
(220) فهرس الفهارس ج 1 ص 319 - 329 .
(221) فهرس الفهارس ج 1 ص 329 - 426 .
(222) نفس المصدر والجزء ، ص 321 .
(223) نفس المصدر ، ص 319 .
(224) نفس المصدر والصفحة .
(225) نفس المصدر والصفحة .
(226) نفس المصدر والصفحة .
(227) فهرس الفهارس ج 1 ص 321 .
(228) نفس المصدر ص 221 .
(229) معجم المطبوعات ج 1 ص 729 . لسركيس .
(230) مقدمة هذا الكتاب ص 1 . طبعة مصر سنة 1329 هـ .
(231) عجائب الآثار ج 1 ص 87 - 88 .
(232) التقاط الدرر ص 435 . / عجائب الآثار ج 1 ص 86 .
(233) فهرس الفهارس ج 1 ص 62 - 63 .
(234) التقاط الدرر ص 446 .
(235) فهرس الفهارس ج 1 ص 169 - 172 .
(236) شجرة النور الزكية ص 318 ، رقم الترجمة 1241.

فهرس

لائحة المصادر والمراجع

- أنس الساري والسارب محمد بن أحمد مليح. تحقيق محمد الفاسي مطبعة محمد الخامس الجامعية فاس 1390 = 1970.
- الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ، لعباس بن ابراهيم المراكشي ، الأجزاء المطبوعة ، الطبعة الأولى .
- ايليغ قديما وحديثا محمد المختار السوسي ، المطبعة الملكية .
- التقاط الدرر ، ومستفاذ المواعظ والعبر ، من أخبار وأعيان القرن الحادي والثاني عشر لمحمد بن الطيب القادري ، الطبعة المحققة .
- الأعلام : قاموس تراجم ، عشرة أجزاء ، لخير الدين الزركلي الطبعة الخامسة .
- ابن آجروم ، سلسلة مشاهير رجال المغرب رقم 20 لعبد الله كنون . طبعة أولى .
- استنزال السكينة الرحمانية بالحديث بالأربعين البلدانية ، لعبد الحفيظ الفهري الفاسي ، مطبعة المهدية ، تطوان سنة 1373 ـــ 1953 .
- بشارة الزائرين الباحثين في الصالحين ، لداوود بن علي بن محمد الكرامي (مخطوط) .
- التشوف إلى رجال التصوف ، لابن الزيات التادلي ، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور .
- تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكامان ، تعريب نبيه فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين بيروت .
- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ، جزءان لمحمد بن سليمان الروداني ، طبعة الحجاز .

- جامع كرامات الأولياء ، جزءان ، ليوسف بن اسماعيل النبهاني ، طبعة دار الكتب العربية بمصر .
- الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، ثلاثة أجزاء ، لمحمد بن محمد السراج الوزير الأندلسي ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، طبعة الدار التونسية للنشر .
- الحياة الفكرية بالمغرب في عهد الدولة السعدية ، جزءان ، لمحمد حجي . ط أولى .
- الحياة الأدبية بالمغرب على عهد الدولة العلوية ، لمحمد الأخضر طبعة دار الرشاد الحديثة .
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، لمحمد المحبي ، أربعة أجزاء ، طبعة بولاق بمصر .
- خلال جزولة محمد المختار السوسي ، مطبعة المهدية ، تطوان .
- درة الحجال في أسماء الرجال ، وهو ذيل على وفيات الأعيان ، ثلاثة أجزاء ، لأبي العباس أحمد بن القاضي المكناسي ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، مطبعة دار النصر للطباعة سنة 1970 م بتونس .
- الرحلة العياشية : (ماء الموائد) لأبي سالم عبد الله بن محمد العياشي ، جزءان ، طبعة حجرية .
- الرحلة الناصرية ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر ، جزءان ، الطبعة الحجرية .
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي لمحمد حجي ، المطبعة الوطنية الرباط ، سنة 1964 م .
- طلعة المشتري في النسب الجعفري ، لأحمد بن خالد الناصري ، جزءان ، طبعة حجرية .
- الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، لكمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوي ، طبعة أولى ، مطبعة الجمالية مصر سنة 1332 هـ — 1914 م .
- طبقات الامام الحضيكي مطبعة أولى البيضاء .
- المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا أبي عبد الله أحمد ، لعبد السلام القادري ، مجلد ، طبعة حجرية . 1951 م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، مطبعة النيل ، مصر ، سنة 1925 م .
- محمد عثمان باشا : داي الجزائر (1766 ــ 1791) : سيرته وحروبه وأعماله ، ونظام الدولة والحياة العامة في عهده ، تأليف أحمد توفيق المدني ، نشر المكتبة المصرية بالجزائر .
- مؤرخو الشرفاء ، لبروفنصال ، تعريب عبد القادر الخلادي ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، الرباط 1977 م .
- معجم المطبوعات العربية والمعربة ، شامل لأسماء الكتب والمطبوعة في الأقطار العربية المشرقية والمغربية ، مجلدان ، جمع وترتيب يوسف اليان سركيس طبعة مصر سنة 1346 ــ 1928 .
- معجم المؤلفين : تراجم مصنفي الكتب العربية ، أجزاء عديدة لمحمد رضا كحالة ، مطبعة الترقي دمشق سنة 1376 ــ 1957 .
- المعسول عشرون جزءا ، محمد المختار السوسي .
- المخطوطات الموجودة بدار الكتب المصرية ، مجلد أول ، طبعة دار الكتب المصرية سنة 1956 م .

رقم الايداع القانوني : 1020 / 1990

تم طبعه بمطابع عكاظ

12 زنقة أبو نواس حي الليمون – الرباط

هذا الكتاب

تعريف بالخطوط العريضة لحياة علم بارز

من أعلام الثقافة الاسلامية بالمغرب

في القرن الحادي عشر الهجري

السابع عشر الميلادي

يستعرض مراحل حياة مليئة ب

في سبيل

بعيداً عن ا

المؤلف

الثمن 23 درهما